

44
روايات مصرية للجيب
د. أحمد خالد توفيق
فانتازيا
شيء من جنّ
Looloo
www.dvd4arab.com

مقدمة

(عبير عبد الرحمن) شخصية عادية إلى حد غير مسبوق .. إلى حد يخطف الأبصار .. إنها الشخص الذى نتمنى ألا نكونه حين نتحدث عن أنفسنا .. الشخص الذى لا يتفوق فى الجمال أو القوة أو البراعة أو الذكاء .. لكن لابد من شىء ما يميزها وإلا لعاشت وماتت دون أن نسمع عنها .. ثمة أبطال قصص يمتازون بالقوة .. ثمة أبطال يمتازون بالذكاء الخارق .. ثمة أبطال يمتازون بالحظ العاثر .. ثمة أبطال يمتازون بأنهم لا يمتازون بشىء .. ويبدو أن (عبير) من هذه الفئة الأخيرة ..

فى نقطة واحدة تفوقت (عبير) علينا .. إنها تملك ذلك الخيال الشاسع بحجم المحيط ، وتملك فكرة عن أكثر العوالم الخيالية التى أبدعتها قريحة الأدباء والفنانين والسينمائيين ومصممى الألعاب ، كما أنها امتلكت ذلك الجهاز الغريب الذى يولد الأحلام ، والذى لا يصلح إلا لها فى الواقع ، وبهذا غدت أول مخلوق بشرى يستطيع ارتياد تلك العوالم الساحرة ، بل يشارك فيها كذلك .. ومن البديهى

أن (عبير) صارت تنتمى لـ (فانتازيا) أكثر مما تنتمى لعالمنا .. وبالنسبة لها لم تعد مشاكل الواقع إلا منغصات تتخلل فترات الحلم الأكبر الدائم فى (فانتازيا) ..

إن (عبير) كريمة النفس ، لهذا لن تتركنا هنا وحدنا مع واقع لا يتغير .. سوف تصحبنا معها .. سوف نعبر معها عالم المرآة الساحر مثلما فعلت (أليس) يوماً ما .. سوف تقابل ونحن معها ـ العبقرى المخيف (دستويفسكى) وتجلس فى مجلس واحد مع (أرشميدس) و(الخوارزمى) و(أينشتاين) .. سوف يشرح لها (فرويد) نظرياته وهو يدخن غليونه الذى أصابه بالسرطان .. سوف تمشى مع (أفلاطون) فى بستان مدرسته .. ستحلق مع (طرزان) فوق قمم الأشجار السامقة ، وتثب مع الرجل العنكبوت من فوق ناطحات السحاب .. ربما تخدعها الساحرة الشريرة كى تلتهم التفاحة ، أو تهدد المقصلة عنقها ، ولربما تضع قدميها على تربة المريخ الحمراء ، أو تغطس فى كرة أعماق الدكتور (بيب) .. ربما تفتح قبر (توت عنخ آمون) أو تحارب جحافل المغول ..

إنها (فانتازيا) حيث القواعد الوحيدة للعبة هى : لا قواعد .. وحيث الحدود الوحيدة لرقعة الخيال هى : لا حدود ..

إن جرس المحطة يدق ، والبخار يتصاعد من مدخنة القطار .. والمرشد الملول الذى يرشدها فى أنحاء (فانتازيا) يقف نافد الصبر على باب القطار .. فلنتخذ مقاعدنا بسرعة ..

لقد حان موعد قصة أخرى ..

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني .:. أو كنت تعلم ما تقول عذلتكا
لكن جهلـت مقـالتي فعذلتني .:. وعلمـت أنك جاهـل فعذرتكا

الخليل بن أحمد

١ـ إلى البصرة

مرة أخرى هى من تلك المرات التـى لا تعود فيها لعـالم الواقع ..

بدأت تشعر بالذعر .. ونظرت فى قلق إلى المرشد ، فقال وقد أدرك ما تفكر فيه :

ـ « حسبت أنك تطلبين فانتازيا هربًا من الواقع .. »

قالت وهى تنزع عن رأسها قبعة البريطانية (إلسترى) التى استكشفت منابع النيل منذ لحظات :

ـ « ما يجعل الخيال خيالاً أن يكون هناك واقع .. لكن أن أخرج من الخيال لأدخل فى الخيال ..!.. هذا مخيـف .. أشد ما يفزعنى فى الموت غرقًا ألا أجد أرضًا تحـت قدمـى أقف عليها لثوان قبل أن أحاول النجاة .. »

قال بلامبالاة صارت علامة مميزة له :

ـ « العشوائية مهمة جدًا فى تكوين فانتازيا .. حتى القصص التى رأيتها من قبل .. يمكن أن تعيشـى ذات القصـة بـألف طريقة مختلفة .. لن يكون بونـد هو بونـد ولا هولمز هو هولمز .. أحيانًا تعودين لعـالم الواقـع وأحيانـا لا تعوديـن ..

لاحظى أن فانتازيا هى حرب معلنة ضد النمطية والملل ، والرتابة هى الملل .. »

- « أرى أن انتظام الحياة معجزة فى حد ذاتها .. من الجميل أن نطير لكن الأجمل أن نعرف أننا سنهبط من جديد .. »

قال فى نفاد صبر :

- « دعك من هذه المحاورات البيزنطية .. لن يبقى الوضع على هذا .. المهم الآن أن هناك مغامرة جديدة وأنك بحاجة إليها . راقبى معالم الطريق واقترحى.. »

كان القطار يخرج من القاهرة القديمة وسط معسكرات الإنجليز وعربات الحنطور والباعة الجائلين .. هذا بالضبط هو الجو الذى بدأت عنده قصة (١٩١٩) ... لو انتظرت قليلاً لرأت الشباب يجمعون التوكيلات لحكومة الوفد ..

الآن ينطلق قطار فانتازيا المضحك وسط الأحراش .. أحراش محيطة بالقاهرة ؟ لا تعجب فأنت فى فانتازيا .. هى ترى من جديد قرى البحيرات .. ترى الماساى يطاردون الأسود بين الأحراش .. فجأة تبدأ صحار جليدية يجول فيها (الياتى) وحيوان (الياك) يفر خائفًا .. ثم ترى كلاب (الهسكى) تطارد وحشًا مريعًا يركب زحافة .. هذا المشهد

مألوف .. المشاهد الأخيرة من قصة (فرانكنشتاين) التى تتحاشاها كل الأفلام السينمائية باستثناء فيلم (كينيث براناه) الأخير ... حصن ألمانى بنى فى الجبل ينفجر .. مذبحة فى بلدة صينية ما .. المغول يحرقون بغداد .. الرجل العنكبوت يثب من فوق بناية عالية ليقفز فوق سيارة ، بينما (هارى بوتر) يركب مكنسته ويلوح بعصاه السحرية .. الفدائيون المصريون يفجرون الحفار الإسرائيلى وطائرة يابانية من طراز (زيرو) تقتحم بارجة أمريكية فى (بيرل هاربر) ..

قالت للمرشد :

ـ « إن هذا (مثيرًا) حقًّا .. لكنى لا أرغب فيه »

لم يرفع رأسه إذ أسندها على إطار النافذة ، وقال بلا مبالاة :

ـ « (إن هذا مثير حقًّا) ... لا أعرف لماذا صارت عادة مقدسة لدى الناس أن ينصبوا خبر إن .. لم أعد أجد شخصًا عاقلاً واحدًا لا يفعل ذلك .. »

قالت ضاحكة :

ـ « ليكن .. ليكن .. إن (مصححون اللغة) سيجعلون كلامى مفهومًا .. »

رفع رأسه ونظر لها نظرة نارية ثم قال من بين أسنانه :

- « (مصححى اللغة).. هنا ترتكبين غلطتين معًا .. لم تنصبى اسم إن بالياء ولم تحذفى نون الإضافة ! بهذا أنت تتصرفين كما يفعلون فى التليفزيون : يكتبون بجرأة لا حد لها فى التترات (منفذون الديكور) .. (مصممين الإنتاج).. (نجارين الستوديو).. لقد صار حذف نون الإضافة مهينًا على ما يبدو .. »

نظرت له فى حدة وقالت :

- « هل اعتزلت المهنة وقررت أن تدرّس اللغة العربية ؟ »

- « تمنيت ذلك لكن لغتى لا تسمح به .. إن قواعد العربية أعقد من هذا وأكثر تشعبًا ، لكنى أطالبك بالحد الأدنى الذى يعرفه أى طالب فى الصف الأول الإعدادي.. إن هذه الأخطاء تضرب أذنى كأنها الحجارة .. هناك خطأ آخر صارت له قوة القانون : عدم جزم فعل الأمر .. هل تذكرين عنوان الفيلم الشهير (لا تبكى يا حبيب العمر) الذى كان يطالعنا فى كل لحظة فيثير جنوننا ؟ الأسوأ من هذا أن البعض يصر على تطبيق القاعدة مع فعل أمر تليه ياء المخاطبة .. فيقول للفتاة (لا تبك)..

حاسبًا أنه أحكم الحكماء .. لقد حذف الياء .. فلينم قرير العين بعد التهام شطيرة من الطعمية .. »

شعرت بأنها ضائعة وسط هذه التعريفات .. ماذا دهاه وماذا يريد قوله ؟ الحياة لا تستحق كل هذا التعقيد ..

كانت تعانى مشاكل جمة مع اللغة العربية .. ولكنها لم تخسر درجات كثيرة فى المدرسة لأنها ـ كما يفعل الجميع ـ استطاعت أن تبرمج جزءًا من عقلها كى يتعامل مع اللغة العربية وقواعدها ، وقد راح هذا الجزء يعمل بكفاءة نسبية ، فإذا انتهت المدرسة أزالت هذا الجزء تمامًا وقامت بكى موضعه بالنار ليختفى .. لديها عقل يجيب عن أسئلة الامتحانات وعقل آخر تتعامل به مع الحياة ، فإذا طلبت منها كتابة خطاب ارتكبت فى سطر واحد عشرة أخطاء على الأقل ..

لكنها لم تشعر يومًا بحاجتها إلى هذه الإجادة ، فالكل من حولها يخطئ .. دعك من نظرة المجتمع إلى من يصر على الحفاظ على قواعد اللغة .. إن الناس تتهمه بالتحذلق والسماجة ، وبشكل ما يشعر بأنه كمن يصر على ارتداء طربوش على رأسه ..

صارحت المرشد بهذه التفاصيل فقال فى ضيق :

ـ « هذه مشكلة دائمة .. فى أمريكا تزدهر مصطلحات الزنوج والألفاظ العامية الغريبة ، لكن هناك علماء يسهرون على صيانة هذه اللغة مما يحل بها .. فى بريطانيا لم تستطع لهجة الكوكنى cockney قهر الإنجليزية .. »

ثم نظر خارج النافذة ونظرت معه ..

إنها بلدة عربية فى زمن قديم .. ربما هى (دمشق) أو (بغداد) فى عصر الدولة الأموية أو العباسية .. ثياب تنكرها بالمسلسلات التاريخية فى التليفزيون حتى توقعت أن يخرج من يصيح: «خزاعة !» وتوقعت أن تجد الساعات السويسرية الحديثة فى المعاصم وأن ترى العدسات اللاصقة فى عيون النساء .. هذه تقاليد الدراما التاريخية التى يصعب نقضها ..

لكن شيئًا من هذا لم يكن هنا .. هذه مدينة عربية فى القرن الأول أو الثانى الهجرى .. لا شك فى ذلك ..

نظرت للمرشد وصاحت محتجة :

ـ « ربما نجد هنا الكثير من العلم والحقائق التاريخية ، لكن لا تحدثنى عن التسلية من فضلك .. إن متعة هذه القصة لن تقل عن متعة درس اللغة العربية .. فقط من دون عصا الأستاذ (عبد الجواد) .. »

راح يداعب القلم الذى يمسكه .. تك تتك .. تك تتك ..

ثم قال بابتسامة خبيثة :

ـ « أراهنك على أنك ستجدين هنا بعض المتعة .. ربما الكثير منها .. فقط أريدك أن تفتحى عقلك وذائقتك وتتخلى عن أحكامك المسبقة .. لا بأس من تجربة ناضجة مرة أو اثنتين .. لن تظلى للأبد تزورين قصص (سوبرمان) و(باتمان).. لا أنكر أنهما إبداع بشرى لكن لا بأس من تجربة إبداع بشرى مختلف .. »

ـ « وكيف أعود إن أنا سئمت القصة ؟ »

قال فى خبث :

ـ « نادينى .. فقط يجب أن تتذكري : هل تنادينني قائلة (يا مرشدًا أنقذنى) أم (يا مرشدُ أنقذنى)؟ »

قالت على الفور :

ـ « طبعًا (يا مرشدًا أنقذنى) .. ما دامت هذه صيغة غير مألوفة فلابد أنك تقصدها بهذا السؤال .. »

قال فى غيظ :

ـ « ها نحن أولاء نعود لسياسة التخابث والتذاكى .. سوف تقابلين هنا قومًا لا يفتحون فمهم إلا بمقدار .. لو سألت أحدهم من أين تشرق الشمس ، لراح يفكر ويراجع نفسه ولن يتكلم إلا بعد التأكد .. على كل حال سوف نتكلم فيما بعد .. »

ثم جذب حبل القطار فتوقف ..

لم تجد الوقت لتخبره أنها لا توافق .. لقد قرر أن ينهى الاختيار وهى طريقة لا بأس بها وتناسب (عبير) على كل حال ..

هكذا وجدت نفسها تلبس ثيابًا جديرة بذلك العصر .. لا شك فى أنها ثرية وعلى الأرجح ليست جارية لأحدهم ..

ما هذه المدينة ؟ إنها البصرة يا عبير حيث تقع أحداث قصتنا ..

* * *

٢ ـ كيف بدأ كل شىء ؟

فتحتْ جهاز الكاسيت وسألته فى صوت هامس :

ـ « كيف بدأ كل شىء ؟ »

ينظر إلى الأرض كأنه يبغى أن يحفر فيها ثقبًا ، ثم يقول وهو شارد الذهن إلى حد ما :

ـ « بدأ بـ (ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل بن يعمر بن حلس بن نفاثة بن عدى بن الدئل بن بكر بن عبد مناة).. »

ابتلعت ريقها وقد بدا لها الأمر مخيفًا .. عندما يبدأ أمر ما بشخص اسمه بهذا الطول فلابد أنه أمر مرعب .. لكنها على الأقل عرفت أنه شخص ولد فى الجاهلية ما دام اسمه ينتهى بـ (عبد مناة)..

رأى حيرتها فابتسم ابتسامة رقيقة وقال :

ـ « للاختصار نطلق عليه اسم (أبو الأسود الدؤلى) .. »

أخيرًا بدا لها الاسم مألوفًا .. صحيح أنه طويل لكنه أفضل مائة مرة من الاسم الأول الذى لن تتذكره مهما حاولت ..

ضحكت من جديد فنظر لها فى حدة وقال :

- « إنه معلمنا جميعًا فلا أقبل أى نوع من الاستخفاف به »

كانت هذه من اللحظات النادرة التى تشعر فيها بأن (سيبويه) قد يصير صارمًا .. فى العادة هو رقيق جدًا أقرب للحزن والشفافية ، لكن يبدو أنها داست فتيلاً مهمًا لديه ..

قالت معتذرة :

- « آسفة .. سأظل صامتة حتى تفرغ من حكايتك »

نظر لها فى حيرة وبدا كأنها فتحت له بابًا فكريًا جديدًا .. راح يلوك عبارتها ثم غمغم :

- « (حتى) .. أنت استعملتها كأنها أداة نصب للفعل المضارع بينما هى ليست كذلك .. »

عادت تكرر :

ـ « آسفة لو كنت فعلت ذلك .. صدقنى لم أتعمده أبدًا . »

قال بنفس الشرود :

ـ « (أبدًا) لا تستعمل لنفى ما حدث فى الماضى .. قولى (لم أتعمده قط) .. »

قررت أن تخرس ما دام كل حرف تتلفظ به خطأ .. لن تكون مغامرة اليوم هينة على الإطلاق ما لم تدع أنها مصابة بالخرس أو العته ..

أخرج لفافة ورق دون عليها خاطرة جاءته ثم تنهد .. شمت رائحة أنفاسه العطرة فتذكرت ما سمعته عن سبب هذا الاسم الذى اشتهر به .. (سيبويه) بالفارسية معناها (رائحة التفاح) ، وكانت أمه تدلله بهذا اللقب فى طفولته عندما كان فى شيراز ..

استطرد (سيبويه) :

ـ « (أبو الأسود الدؤلى) هو معلمنا جميعًا .. إنه مؤسس علم النحو.. »

قالت فى غيظ :

- « وسبب كل درجة فقدتها فى امتحانات اللغة العربية .. »

- « إن كان عقلك لا يتسع للآلئ فلا ذنب عليها .. »

كان هذا دأب الطلاب فى كل زمان ومكان .. يعتقدون أن أينشتاين اكتشف النسبية فقط كى يجعل حياتهم جحيمًا .. نابليون احتل مصر كى يرسبوا فى امتحان التاريخ .. كولومبوس اكتشف أمريكا كى يصير كتاب الجغرافيا أكثر سمكًا .. دعك من قبائل الجرمان الأوغاد التى ابتلتهم باللغة الإنجليزية .

عاد (سيبويه) يقول :

- « كان علامة عبقريًا .. وإن لم يتفق الناس على القصة التى جعلته يفكر فى هذا العلم .. كانت الإمبراطورية الإسلامية تتسع ومعها كثر العجم .. هذا أدى إلى خلل بدأ يتسرب إلى اللغة العربية ، وصار كل واحد يستعمل لغته الخاصة .. شعر (الدؤلى) بهذا .. القصة الأشهر - ولعلها الأصدق - أنه مر برجل يقرأ القرآن الكريم فيقول : ﴿ إن الله برىء من المشركين ورسوله ﴾ ..

« كان الرجل يقرأ لفظة (ورسوله) مجرورة .. أى أنها معطوفة على (المشركين).. هذا يغير المعنى كلية .. وقيل

إن (الدؤلى) أصابه الهلع وقرر أن يعرب القرآن الكريم .. وهناك من قال إن (عمر بن الخطاب) - رضى الله عنه - كلفه بذلك ..

« يقال كذلك إن (أبو الأسود الدؤلى) دخل على ابنته فى يوم حار ، فقالت له : ما أشدُ الحر .. فرد عليها بأن أشد الحر شهر (ناجر) الذى هو شهر صفر عند العرب قديمًا .. لقد حسبها تسأله عن أى الفصول أشد حرًا .. كان عليها أن تنصب لفظة (أشد) لو أرادت أن تتعجب من شدةَ الحرِ .. بهذا تكون (أشد) فعلاً ماضيًا جامدًا و(الحر) مفعولاً به »

تذكرت (عبير) هذه المواقف .. عندما تسأل صديقك : « هل يمكنك مناولتى هذا الكتاب ؟ » فأنت فى الواقع تطلب أن يناولك الكتاب .. من الممكن أن يعتبرك تسأله ويقول : « نعم .. يمكننى ذلك ! »

عاد (سيبويه) يحكى قصته :

- « على كل حال نحن متأكدون من شىء واحد .. هو أنه قصد الإمام (على) - كرم الله وجهه - وشرح له وجهة نظره .. إن العربيةَ فى خطر .. الناس يرتكبون الأخطاء اللغوية كما يتنفسون .. تناول الإمام (على) صحيفةً وكتب فيها : بسم الله الرحمن الرحيم .. الكلام اسم وفعل وحرف .. الاسم ما أنبأ عن

المسمى .. والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى .. والحرف ما أنبأ عن ما هو ليس اسمًا ولا فعلاً .. ثم طلب من (الدؤلى) أن يستمر على هذا النحو .. للدقة قال له: انحُ نحو هذا .. »

شهقت (عبير) مندهشة :

- « ومن هنا ولدت لفظة (نحو) !! »

هز (سيبويه) رأسه وأضاف :

- « راح (أبو الأسود الدؤلى) يدرس كلام الناس والأخطاء الشائعة وما يحفظه من الشعر العربي، ثم عاد للإمام (على) وأراه ما توصل له .. لابد أنه راح يعرض ما اكتشفه متوترًا متهيبًا .. من ضمن ما عرضه حروف النصب (إن و أن وليت ولعل وكأن) التى تطلقون عليها (أخوات إن).. قال الإمام (على) : لماذا لم تذكر (لكن) ؟ قال له (الدؤلى) : لم أحسبها منها .. فقال الإمام : بل هى منها .. زدها »

كانت (عبير) مندهشة .. لم تعرف من قبل أن الإمام (على) هو من بذر البذرة الأولى فى علم النحو .. وهذه الطريقة الخلابة فى رسم الخطوط الأساسية كما يفعل مشرفو الرسائل الجامعية .. وضع للعالم بداية الطريق ثم تركه يبحث وينقب ..

ـ « اختلفت الروايات حول تاريخ ميلاد (أبو الأسود الدؤلى) .. هناك من قال إنه ولد قبل الهجرة بـ ١٦ عامًا ، ومن قال إنه ولد قبلها بعام واحد .. الشىء المؤكد هو أنه ولد فى قبيلة (كنانة).. لم ير الرسول ﷺ قط ودخل الإسلام بعد وفاته. على كل حال من المؤكد أنه توفى عام ٦٩ هجرية ، وأنه شهد موقعتى (الجمل) و(صفين) »

كانت تصغى لـ (سيبويه) وهى تتذكر كيف بدأت قصتها ..

* * *

لا يعرف الكثيرون أن جريدة (الحقيقة الوحيدة) موجودة فى هذا الشارع الضيق .. صحيح أن الطريق نظيف وأنه محاط بالنباتات . صحيح أن المنطقة هادئة للغاية ، لكنك إذ ترى هذا الشارع تستعيد بعض الذكريات عن حياة هادئة ربما عشتها فى الستينيات .. ربما لم تعشها قط .. تحلم بالأسرة الهادئة والقطة مشمشية اللون والأب ذى الشارب والنظارة الذى يعمل مهندسًا فى مكان ما والذى يعود عند الظهيرة ليتناول الغداء وينام .. هذا زمن لم يره واحد من شباب اليوم : عندما كان الأب يتواجد فى البيت مساء ..

المنطقة توحى لك بهذا وأكثر ، لهذا يستحيل أن يجوب بذهنك أن هناك جريدة هنا .. لكنك تصعد الدرج مارًا بالبواب الصعيدى

الذى يرمقك بلا مبالاة ، ثم تصعد درجات نظيفة تفوح منها رائحة حمض الكاربوليك حتى تصل لباب موارب عليه لافتة بلاستيكية كتب عليها بخط جميل (جريدة الحقيقة الوحيدة)..

لا يوجد أحد بانتظارك فيما عدا كومة من أعداد الجريدة التى ردت إليها لما لم تجد مشتريًا .. رائحة الورق الطازج .. هناك قط لا تعرف من صاحبه .. هذا كل شىء ..

تدخل (عبير) مكتب الأستاذ (فوزى) رئيس التحرير وربما سكرتيره كذلك .. أصلع الرأس له شارب رفيع ويضع نظارة سميكة .. يلبس قميصًا أبيض له كمان طويلان فقط كى يستطيع أن يلبس كمى العمل الأسودين فوقهما .. هذا يعطيه منظر رئيس تحرير حقيقيًا وكأنه (على أمين) أو (مصطفى أمين).. إنه لا يدخن لكنه فعلها مرغمًا حينما عرف أن (على أمين) كان يدخن ٣٦٠ لفافة تبغ يوميًا .. إنه ليس عصبيًا لكنه اضطر لذلك ..

ما لا يعرفه القراء ولا يعرفه أحد فى البناية أن هذه الجريدة تقدم أخبارًا صحيحة على طول الخط .. أخبارًا أدق مما تتصوره أو يتصوره أى صحفى فى العالم ، ولهذا سر صغير ستعرفه فيما بعد .. فلو فهم الناس الحقيقة لبيعت النسخة من هذه الجريدة بألف جنيه ..

تقرع (عبير) الباب المفتوح بخفة كأنها تقول (نحن هنا) فيشير لها كى تدخل .. هش وجهه قليلاً لها ، فأدركت أنه يحب عملها .. لم تكن صحفية رديئة قط فى (فانتازيا).. إنها متحمسة مولعة بملاحقة الخبر واقتحام الأخطار فمن ذا الذى لا يهش لها ؟

قالت وهى تلوح بعض الأوراق :

- « أنهيت حوارى مع (محمد على).. لقد سألته عن كل تفاصيل مذبحة المماليك .. إن .. »

أشار بيده كى يلزمها بالصمت وابتلع المزيد من (فلتر) لفافة التبغ الذى يقضمه بلا توقف ، ثم أشار لها كى تجلس .. وقال :

- « فيما بعد .. فيما بعد .. هناك مهمة أخرى أريد أن تقومى بها .. »

- « تفضل .. »

وضع كفيه على المكتب ومال نحوها :

- « هل كان شرسًا ؟ »

- « من ؟ »

- « محمد على .. »

ضحكت وقالت فى دلال :

- « هناك معاملة للرجال ومعاملة للنساء .. حتى الغيلان يلينون قليلاً عند التعامل مع امرأة .. هذا هو سلاح المرأة الأسطورى .. إنها لا تعامل كالرجال أبدًا .. »

فكر فى كلامها قليلاً ... بالفعل هى تنجح فى أية مهمة يسندها لها .. من الصعب أن يقبل (نابليون بونابرت) أن يعطيك من وقته ثلاث ساعات من أجل حوار ، لكنه يفعل ذلك من أجل (عبير).. بل إنه قبل يدها وقت الانصراف ..

قال لها وهو يوقع بعض الأوراق :

- « هذه المرة سوف يكون عليك أن تتوجهى إلى البصرة حالاً.. هذا هو المكان .. الزمان هو الدولة العباسية .. هناك حدث جلل سوف يقع وعليك أن تكونى موجودة .. »

ثم ضاقت عيناه وقال :

- « مباراة شطرنج العصر بين (فيشر) و(سبابسكى) ... »

قالت فى غباء :

ـ « ليكن .. مباراة الشطرنج العظمى فى عصر الدولة العباسية .. سأكتب عنها »

ضحك كثيرًا ثم استجمع أنفاسه ، وقال :

ـ « هل تتوقعين أن تقابلى عباسيًا اسمه (سبابسكى) ؟ على الصحفى أن يكون سريع البديهة وإلا فليقعد فى دار أبيه .. ما أردت قوله هو أن المباراة التى سترينها تعادل أهمية مباراة (فيشر) و(سبابسكى).. لو بحثنا عن مثيل لها فى الحروب لكانت مواجهة (هانيبال) و(سكيبيو الإفريقى) »

ـ « حقًا لا أملك أية فكرة عن .. »

ـ « هى المواجهة العظمى بين (سيبويه) و(الكسائى).. بين العالم المتواضع غزير العلم والعالم المبهرج قوى النفوذ .. بين علم نحو (البصرة) وعلم نحو (بغداد).. »

دونت الاسمين فى مفكرتها .. لم تكن لديها إلا فكرة ضبابية شبحية عن أصحاب هذه الأسماء ، لكن ليست هذه أول مرة تبدأ فيها من الصفر .. بعد بحث سريع سوف تصير من أعلم الناس بالموضوع .. المهم فقط ألا يلاحظ رئيس التحرير جهلها ..

قالت له وهى تطوى المفكرة :

ـ « أوكى .. متى أبدأ ؟ »

ـ « الآن ! إن لديك عملاً كثيرًا »

ثم ناولها ورقة كتب عليها :

أولاً : مقابلة (سيبويه) ومعرفة تاريخ حياته خاصة علاقته بالخليل بن أحمد.

ثانيًا : حضور المناظرة الكبرى.

ثالثًا : أخذ وجهة نظر الناس فى ذلك العصر .. هل كانوا يهتمون بالنحو أم هم مثلنا ؟

ثم نهض ليفتح الستار الموجود خلف مكتبه .. ظهر الباب الخشبى الموصد ..

فتح الباب فرأت النفق الى اجتازته عشرات المرات من قبل .. الباب الذى لو رآه القراء لبيعت النسخة من جريدة (الحقيقة الوحيدة) بألف جنيه ..

لا يعرف أحد أن الجريدة تقع فوق ممر زمنى .. ممر من الممرات التى يحلم بها كتاب الخيال العلمى .. يكفى أن تجتازه لتكون فى زمن آخر ومكان آخر .. لا يعرف القراء

أن الكلام الذى كتب عن إستراتيجية بونابرت في مصر لم يكتبه مؤرخ ، بل كتبه بونابرت نفسه ! ... اللقاء مع محمد على لم يكن صيغة بلاغية ولكنه لقاء حقيقى فعلاً.. فقط لا يمكن التقاط صور لأسباب فيزيائية يطول شرحها ، دعك من أن هذا يفضح سر الجريدة .. تخيل أن ترى صورة المحررة بثيابها العصرية جالسة على الطنافس أمام محمد على وهو يدخن النارجيلة ويحكى لها عن مشروعه الحضارى العملاق !

الخلاصة أن هذه الجريدة العجيبة كانت تجرى لقاءات مع شخصيات عاشت من آلاف السنين ولا أحد يعرف .. إن افتضاح هذا السر يعنى أن ينتزع هذا النفق من ملكية الأستاذ (فوزى) لتأخذه جهات حكومية أو علمية .. هو لا يريد هذا أبدًا لذا ضحى بكل المكسب المادى الذى كان سيحققه لو افتضح سره ..

هكذا اجتازت النفق .. سمعت الباب فى الناحية الأخرى يوصد ، ثم وجدت نفسها فى الظلام .. قبل أن تنتابها الفوبيا المعهودة رأت الضوء عند نهاية النفق .. لو خرجت من هنا لوجدت مدينة البصرة فى عهد الدولة العباسية ..

ثيابها ؟ لم تشكل عقبة فى أية مغامرة سابقة لها .. إن هذا لغريب لكنه حقيقى .. يبدو أن هذه الصفقة الغريبة تتضمن ألا يندهش أحد لرؤيتها بثيابها العصرية ومعها جهاز التسجيل ..

هكذا خرجت من الناحية الأخرى للنفق لتجد نفسها تقف وسط ساحة يحيط بها أكثر من مسجد .. جمال تحمل غلالاً تعبر المكان فى بطء ، وعبيد زنوج يفرغون حمولتها ، بينما شاعر عابث يطارد جارية حسناء ، وأطفال يلعبون بطوق ، وسقّاء يحمل قربة جلدية مليئة بالماء المعطر يطوف بها على مجموعة من طلاب العلم الواقفين يتناقشون فى شرح إحدى المعلقات .. النخيل فى كل مكان وهناك نافورة لا بأس بها ..

دنت من أحد الطلاب وسألته عن بيت العلامة (سيبويه) ، فنظر لها للحظة كأنما هو يتأكد من أنها حقيقة ثم قال :

ـ « (سيبويه) ؟ ألم يرحل إلى (بغداد) بعد ؟ ليكن.. »

ثم أمسك بأحد الصبية الراكضين وطلب منه أن يوصلها إلى بيت (سيبويه)..

راح الصبى الوغد يركض فراحت تلاحقه .. إن رئتيه تصغران رئتيها عشرين عامًا على الأقل ؛ لذا شعرت بأن الهواء شحيح ولم تجد ما يكفى منه كى تناديه ليترفق قليلاً بها ..

لاهثة أبطأت السير بجوار بائع سمك يعرض بضاعته قوية الرائحة ، وجواره كانت امرأته تعد السمك المسجوف تلك الأكلة العراقية التى طبقت شهرتها الآفاق ..

رجل دنا من الطاولة وسأل البائع عن ثمن سمكة حسناء مغرية ، فرد هذا :

- « بدرهمان ! »

صاح الرجل فى تقزز :

« بكم ؟ »

- « بدرهمان .. »

باستنكار :

- « بكم ؟ »

- « بدرهمان .. لن أقضى اليوم أكرر هذا .. »

تساءلت (عبير) عن القيمة الشرائية لدرهمين فى هذا الزمن .. هل هو سعر رخيص أم غال ؟ واضح أنه ليس بالسعر المرضى لو نظرنا لتقزز المشترى وذهوله.. هنا سمعت المشترى يقول كأنه موشك على الجنون :

- « هل ترفع المجرور يا أحمق ؟!! (بدرهمين) مجرورة وعلامة جرها الياء لأنها مثنى !!!! »

هنا فهمت .. لم يكن الرجل مشمئزًا من السعر بل من الخطأ - اللحن كما يقول العرب - وابتسمتْ .. إن أمامها الكثير من المرح فى هذا الزمن .

قال البائع فى تحد :

- « سمعت (سيبويه) يقول لى : ثمن السمكةَ درهمان ! »

أصابها الذهول .. شهرة (سيبويه) بلغت بائعى السمك إذن .. صحيح أن الرجل أخذ منه الكلام حرفيًّا لكنه نصر لا شك فيه أن يهتم بائع السمك بكلام العلماء ..

نظرت حولها فاكتشفت أن الصبى اختفى .. الأحمق سيظل يجرى حتى يبلغ بيت (سيبويه) ثم ينظر حوله بحثًا عن تلك البلهاء التى كانت ترافقه.

سألت البائع عن بيت (سيبويه).. ما دام يعرفه لهذا الحد فمن الأحرى أن يعرف بيته .. أشار لها الرجل إلى زقاق جانبى وأدلى ببضعة أوصاف من طراز : يمين فى

شمال .. ثم شمال فى يميـن .. ثـم شـمال .. ثـم يمين .. ثـم شمال ثم شمال ..

هكذا تركتـه وراحت تجد السير وسط شـوارع المدينـة الحارة ..

قرعت الباب العملاق ، وبعد دقيقـة وجدت نفسـها تقف أمام (سيبويه) شخصيًا ..

★ ★ ★

٣- أيام مع (سيبويه)

ويواصل (سيبويه) كلامه عن (أبو الأسود الدؤلى) الذى خرجوا جميعًا من عباءته ..

و(عبير) تنظر لوجهه الرقيق الحالم وهو يتكلم.. بالفعل كما وصفه كل من قابله .. الملامح المريحة والجو العام الموحى بالنظافة كأنه قد خرج من الحمام لتوه .. يمكن أن تقدر أن عمره حوالى الثلاثين لكنه فى الحقيقة فى الأربعين من عمره بالضبط ..

قال (سيبويه) بعدما قدم لها صحفة عليها البطيخ المعطر بماء الورد ودورق من الماء البارد :

- « بعد هذه البحوث فى النحو أدخل (الدؤلى) فن تشكيل الحروف .. كان أول تشكيل ابتكره يقضى بأن يجلس الكاتب ومعه حبر أحمر .. فإذا كان الحرف مفتوحًا وضع نقطة حمراء عليه من فوق .. وإذا كان مكسورًا وضع نقطة تحته .. الضمة هى نقطة أمام الحرف .. الغنة تمثل بنقطتين .. »

قالت باسمة :

- « لكن هذا مربك إلى حد كبير .. »

ـ « كان هذا رأى آخرين ، لكن يجب ألا ننسى أن هذه هى المحاولة الأولى .. قبل (الدؤلى) لم يكن هناك شىء اسمه تشكيل .. »

وفكر قليلاً ثم أضاف :

ـ « مات العالم العظيم لكنه ترك من خلفه عدة تلاميذ .. منهم (عطاء) و(أبو حرب) ـ وهما ابناه ـ و(عنبسة) و(ميمون) و(يحيى بن النعمان العدوانى) و(سعد بن شداد الكوفى النحوى) و(نصر بن عاصم الليثى النحوى).. هل تفهمين ؟ إن العلم عملية مستمرة بلا توقف .. فلولا (الدؤلى) لما جاء (الخليل بن أحمد) وسواه .. »

ـ « وحتى قدومُك أنت! »

نظر لها فى حيرة ثم مد يده إلى قرطاس معه ، وخط فيه بعض كلمات وقال :

ـ « لقد قمت برفع كلمة (قدوم).. فلماذا ؟ »

هزت يديها كأنها تدفع عن نفسها تهمة قتل ، وقالت فى حيرة :

ـ « لم أتعمد شيئاً وأقسم لك .. الكلام خرج من فمى بهذه الطريقة .. »

قال وهو يهز رأسه شأن من يطرد عنه هاجساً ملحاً :

- « (حتى) هذه ! ... إنها تثير جنونـي .. هل هى حرف جر ؟ هل هى أداة نصب ؟ الغريب أنك رفعت ما بعد (حتى) لكن هذا ليس خطأ .. هناك نماذج كثيرة على هذا .. »

ثم حك رأسه من تحت العمامة مغمغمًا :

- « لا أفهم .. »

قالت (عبير) محاولـة أن تجعلـه ينسى (حتـى) هـذه بعض الوقت :

- « ليكـن .. إذن أنتـم جميعـًا خـرجتـم مـن عبـاءة (أبو الأسود الدؤلى).. فهمت هذا الجزء .. الآن العالم كله يتحدث عن مناظرتك المزمعة مع (الكسائى).. متى ترحل إلى بغداد ؟ »

- « خلال شهر أو اثنين . »

- « ألست قلقًا ؟ »

ابتسم وقال :

- « نعم . »

- « وما سر هذا القلق ما دمت تعتقد أنك الأفضل ؟ »

قال فى غيظ :

ـ « أنا نفيت أننى قلق .. أنت سألت سؤالاً منفيًا .. لو كنت قلقًا لقلت (بلى) لكنى غير قلق لذا قلت (نعم).. »

ـ « الكسائى ليس خصمًا هينًا وأنت ـ فيما أعرف عنك لا تقبل الهزيمة .. »

ـ « نعم .. أوافق على هذا كله .. الكسائى ليس خصمًا هينًا وأنا لا أقبل الهزيمة .. لهذا سأغلبه بعون الله تعالى.. »

قالت باسمة :

ـ « أرجو أن تكون مباراة ممتعة .. لا تنس أننى قطعت كل هذه المسافة فى المكان والزمن كى أحضرها .. »

ثم بلهجة تمثيلية كأنها مذيعة تلفزيون بلهاء قالت :

ـ « أمير النحاة (عمرو بن عثمان بن قنبر) الشهير بـ (سيبويه).. من هم أساتذتك الحقيقيون الذين عاصرتهم؟ »

أطرق شاردًا كمن يتذكر ، ثم رفع عينه نحوها وقال :

ـ « تعالى معى .. »

* * *

العام ١٤٨ هجرية .. قرية البيضاء فى (شيراز)..

هل هناك لمسة ما فى هذا الجو تغرى بمولد العباقرة ؟ رأت (عبير) هذا الجو من قبل لكن على مشارف مدينة (شهد) عندما كان أبوها (أبو القاسم المنصور) الذى سيسمى (الفردوسى) فيما بعد ..

هنا نشأ (سيبويه) العظيم ، وكما قلنا فإن سبب هذا الاسم هو رائحته العطرة التى ذكرت أمه برائحة التفاح ..

يرتحل الصغير إلى البصرة .. هناك تراه (عبير) جالسًا فى حلقات العلماء مع إمام النحو (الأخفش) و(حماد بن سلمة).. لقد ذهبت معه إلى عهود صباه الأول ، فلم يكتف بأن يحكى لها بل هى تراه ..

تجلس بعيدًا عن طلاب العلم الجالسين ، وتتظاهر بأنها لا تلاحظ نظراتهم الفضولية لها من وقت لآخر .. حينما يدنو منها أحد العاملين ليسألها عما تريد تقول فى سرعة :

- « أنا مع .. مع (سيبويه) »

هذا جزء من عالم (فانتازيا) بالتأكيد .. أن تجلس آنسة بثياب عصرية وجهاز تسجيل فى حلقة علم بالبصرة فى العصر العباسى فلاتنال إلا الفضول ، فهذا لا يحدث إلا فى فانتازيا .. ولو أردنا أن نعبر عن الموقف بالعامية لقلنا : (عديها المرة دى)..

تصغى للدروس محاولة فهم شىء ما .. فى الواقع لم تدرك مدى غبائها إلا فى هذه اللحظة .. نعم هم يتكلمون العربية ، لكنها لا تشبه العربيةَ التى تتكلمها هى .. بون شاسع يفصل بين عربية هؤلاء وعربية (الروشنة طحن والنفسنة وكله فى الأمبلايظ)..

(سيبويه) الشاب حديث السن يجلس فى الصف الأول متحمسًا متأفزًا يوشك على أن يثب من مكانه ، كأنما هو يتلقى قطعًا من اللحم المشوى لا دفقات علم .. كذلك الأستاذ الوقور الجالس مستندًا إلى العمود أدرك أن له مستمعًا واحدًا وخصمًا واحدًا وحليفًا واحدًا بين كل هؤلاء الجالسين ، من ثم راح ينظر له فى عينيه وحده كأنما يقول : هذا العلم لك أنت بالذات لأنك تعرف قيمته ..

الأستاذ هو (حماد بن سلمة) مفتى البصرة وقطب علماء النحو فيها ..

كان يقول بصوت وقور رزين :

ـ « قال النبى صلى الله عليه وسلم : (ليس من أصحابى أحد إلا ولو شئت لأخذت عليه ليس أبا الدرداء) »

ووصل الكلام .. لكن (عبير) استطاعت من مكانها أن ترى الرعدة الكهربية التى سرت فى جسد الفتى .. ثمة

شيء خطأ.. رفع يده في تردد مهذب .. فنظر له الأستاذ نظرة من طراز (تكلم الآن أو اصمت للأبد)..

قال بصوت مبحوح :

- « هناك خطأ يا سيدى .. الصواب أن تقول : (ليس أبو الدرداء).. نحن نتكلم عن اسم (ليس).. أى إنه مرفوع . »

ابتسم الشيخ وقال فى هدوء :

- « لحنت يا (سيبويه) ... (ليس) هنا أداة استثناء .. (أبا) منصوبة لأنها مستثنى »

تصاعدت ضحكات خفيفة بعثت الحياة فى نفوس الطلاب الملول.. أما (سيبويه) فاحمرت أذناه من تحت العمامة .. ثم قال فى حماس :

- « لا جرم .. سأطلب علمًا لا تلحنى فيه .. »

أى إنه سيصل درجة من العلم لا يجد أحد غلطة فى كلامه بعدها ..

بعد الدرس قابلته وهو يتلقى دعابات أصدقائه فى تواضع مرح .. فقال لها :

- « هل سجلت هذا الموقف ؟ إنه جوهرى فى حياتى .. هذا هو القسم الذى اتخذته على نفسى . »

رأت (عبير) فى حماسه نوعًا من المغالاة .. فلا أحد معصوم ، على أنها فهمت فيما بعد أن هذا جزء من حساسيته الشديدة .. تلك الحساسية التى يشعر بها لأنه فارسى الأصل ومهما حقق من انتصارات سيظل العرب ينظرون له على أنه لا يجيد العربية مثلهم .. برغم أن العصر العباسى هو باختصار شديد (عصر تدليل الفرس) ، وهو ما يختلف كثيرًا عن عصر الأمويين .. هذه أشياء تكلمنا عنها فى (ألعاب فارسية) لكننا نكررها للتأكيد..

السبب الآخر لهذه الحساسية هو أنه ذو كبرياء .. إنه من الطراز الذى نطلق عليه فى العامية (عنده دم).. وقد شعر بأنه أهين بصوت عال فى حلقة الدرس .. فلابد أن هذا حز فى نفسه كثيرًا ..

منذ أن أطلق الفتى على نفسه هذا القسم انطلق يدرس ويتابع كل شىء يخص اللغة العربية ..

قالت له (عبير) وهى تجد السير وراءه فى شوارع البصرة :

ـ « هل تجوب حلقات الدرس طيلة اليوم حتى المساء ؟ »

فجأة توقف فاصطدمت به من الخلف وارتطمت أسنانها ببعض .. لكنه لم يلحظ هذا .. التفت لها وعلى وجهه ذات التعبير الذى رأته مرارًا :

- « حتى المساء ! لقد استعملت (حتى) كأداة جر .. أليس كذلك ؟ »

قالت بذات الطريقة التي يؤكد بها تاجر المخدرات أن الحشيش المضبوط ليس ملكا له :

- « والله العظيم لم أتعمد هذا .. سامحنى .. كنت قد آليت على نفسى ألا أتطرق إلى أى موضوع فيه كلمة (حتى) لكن الطبع يغلب التطبع »

قال مفكرًا :

- « لكنها استعملت فى القرآن الكريم ذات الاستعمال .. ألم يقل تعالى عن ليلة القدر : ﴿سلام هى حتى مطلع الفجر﴾ ؟ هنا استعملت كحرف جر .. ولهذا ننطق (الفجر) مجرورة »

قالت نافدة الصبر :

- « إذن هى حرف جر .. »

قال وهو يحك ذقنه :

- « ليس الأمر بهذه البساطة .. عندما تقول (نحترم كل الناس حتى الفقير منهم).. هل تعرفين إعراب (الفقير) ؟ إنها منصوبة ! كيف ؟ كيف ؟ »

وبدا عليه الهم والغم..

قالت له معتذرة :

ـ « لن أعود إلى سيرة (حتى) هذه للأبد .. هذا وعد .. »

ثم عادت تسأله :

ـ « هل تجوب حلقات الدرس هذه حـ .. إلى أن يأتى المساء ؟ »

ـ « ليس لحياتى هدف إلا العلم .. هذه طريقة حياة وليست نشاطًا هامشيًا أقوم به .. لكنى حتى هذه اللحظة لم أبلغ ما أريد »

فى هذه اللحظة سمعوا صراخًا .. صراخ طفل يعوى كأن هناك من يذبحه ..

انفتحت الدور وخرج عشرات الرجال يضربون الأرض بنعالهم ضربًا .. وتصاعد الغبار فى الجو ، بينما هرعت (عبير) إلى الغلام الصارخ وانحنت لتربت عليه .. سقط على الأرض وراح يلطم خديه .. وكلما أراد الكلام خنقه البكاء وسال المخاط أنهارًا على ثوبها .. فى النهاية استطاع الكلام :

ـ « أبى ! »

سألته (عبير) :

ـ « هل داهمته نوبة قلبية ؟ »

ـ « لا .. »

سأله (سيبويه) :

ـ « هل خرج عليه عشرون مسلحًا وذبحوه ؟ »

ـ « لا .. »

سأله رجل من الواقفين :

ـ « هل هو الذى يريد ذبحك ؟ »

ـ « لا .. »

ثم بصق وسعل وقال :

ـ « لقد جُنَّ ! أبى قد جُنَّ !! »

★ ★ ★

٤ـ العبقـرى

هذا عمرو يستعفى من .. زيد عند الفضل القاضى

★ ★ ★

يهرع النـاس وبينهم (عبير) إلى حيث دار الغـلام .. زقاق تلو زقاق ثم باب خشـبى عمـلاق .. هنـا سـمعت (عبير) (سيبويه) يهمس فى إجلال ورهبة :

ـ « هذا بيت (الخليل بن أحمد الفراهيدى) ! إذن فالغلام ابنه ! »

قالت وهى تستجمع أنفاسها :

ـ « هل هذا مهم ؟ »

لم يرد لأنه لحق بالرجال الذين دخلوا الدار ..

دار فقيرة هى ليس فيها شىء من الزينـة .. هنـاك كوة فى السقف يدخل منها نور الشـمس الـذى تـتراقص وتسبح فيـه ذرات الغبـار .. وهنـاك طيور تبحث عن رزقهـا هنـا وهناك ، وهناك بئر فى وسط المكان فى هذا العصر الذى لم يعرف السباكة الحديثة .. الغريب أن هناك رجلاً يتدلـى فى البئر .. تقريبًا يتدلى فى البئر فلم يبق إلا قدماه فى الخـارج بينما هو منثن على نفسه وجذعه بالكامل فى الداخل ..

الأدهى أنه كان ينشد الشعر بلا انقطاع !

قالت لنفسها :

- « كان الغلام على حق .. لا يحتاج الأمر إلى طبيب نفسى كى يوقع على شهادة الجنون. »

تعاون الرجال على إخراج الرجل المتدلى من البئر ، بينما ابنه لا يكف عن الصراخ وتفجير قنابل المخاط من منخريه ..

كان الأب مسنًا وقورًا له لحية بيضاء لا يمكن أن تصدق أنها حقيقية .. كأنها قطن قام بلصقه هناك .. وقد رأى لهفة الناس فبدا كأنما قد أفاق من حلم ..

صاح أحد الرجال :

- « لقد أثرت ذعر ابنك يا (خليل) ! »

وقال آخر :

- « رجل فى سنك يدفن رأسه فى البئر لينشد الشعر ؟ »

نظر الرجل إلى ابنه وإلى الآخرين ثم قال باسمًا :

لو كنت تعلم ما أقول عذرتنى .:. أو كنت تعلم ما تقول عذلتكا

لكن جهلت مقالتى فعذلتنى .:. وعلمت أنك جاهل فعذرتكا

لم تفهم (عبير) ما يريد قوله بالضبط ، لكنها فهمت أنـه لا يلومهم على جهلهم .. والسبب أنهم لا يعون ما يقولون ..

قال وهو ينفض الغبار عن كتفيه وثيابه :

ـ « الأمر يتلخص فى أن البئر هى المكان الوحيد الذى يرجع الصدى جيدًا .. كنت أدرس مقاطع الشعر العربى .. »

نظرت إلى (سيبويه) فرأت وجهـه الوسـيم يتغير .. الحمرة تغزوه .. ثم انفتح فمـه وراح يلهث نشوة وصدره يعلو ويهبط .. إنها العلامة !.. لقد مسته عصا الساحر .. هنا علم يوشك أن يعلن عن نفسه ..

قال (الخليل) وهو يتجه إلى ركن القاعة حيث بعض الطنافس :

ـ « منذ أيام قابلت فى السوق رجلاً أعجميًا .. كان لطيف المعشر لكنه سخر من شعرنا العربى وقال إنه مفكك لا يحتكم إلى قواعد .. قياسه سمعى تمامًا على عكس شعرهم اللاتينى العظيم .. أثار هذا غيظى وقررت أن أوجد للشعر العربى قواعد .. كنت أمشى مع صديق لى فى سوق النحاس حيث الصناع يدقّون الأوانى بمطارقهم فتنبعث لهذا نغمة مميزة هى (تن تن تن !) وقفت أصغى لفترة طويلة حتى طلب صاحبى أن نرحل قبل أن يصاب بالصمم .. بعد خطوات مررنا على سوق (القصارين).. »

مالت (عبير) على (سيبويه) تسأله همسًا :

ـ « ما سوق القصارين هذا ؟ هل يبيعون هناك (قصارى الزرع) ؟ »

غطى فاه كى لا تفلت منه الضحكة القصيرة وقال :

ـ « إنها سوق من يغسلون الثياب .. »

آه ! هذا هو تجمع الـ Dry cleaning فى ذلك العصر .. الآن فهمت ..

واصل (الخليل) كلامه :

ـ « كانوا يضربون الثياب المبتلة بمقارع من جلد .. من هنا كنت أسمع صوتًا غريبًا مكتومًا بعض الشىء .. (تتن تن تتن تن) .. خطرت لى فكرة رهيبة هى أن النغمات كلها دقة وسكون .. دقتان وسكون .. ثلاث دقات وسكون .. يمكن اعتبار هذه وحدات نميز بها النغمات .. هرعت إلى (أبو رافع) سيد الموسيقيين وطلبت منه أن يساعدنى فى وضع قواعد للشعر العربى ، لكنه قال إنهم يعتمدون على السماع فى موسيقاهم وإنه لا توجد قواعد .. لكنى لم أقنط .. واصلت البحث .. ومن ضمن هذه الأبحاث إنشاد الشعر فى البئر كما رأيتمونى .. الآن يمكننى أن ألخص لكم ما وجدته وعرفته .. لنا لقاء فى المسجد بعد صلاة العصر إن شاء الله لتعرفوا ما عرفت .. »

تفرق الناس .. وخرجت (عبير) لتجد (سيبويه) يقف على باب المسجد بانتظار لحظة الحقيقة .. كان يرتجف انفعالاً وقدمه ترقص تلقائيًا كأنها لا تطيق هدوء وثبات نصفه العلوى ..

قالت له :

ـ « أعتقد أننى لن أستطيع دخول المسجد مع الرجال .. »

ـ « سوف تسمعين ما يقال من الخارج .. »

وطال الانتظار .. طال .. حتى تعالى الأذان .. هنا وثب (سيبويه) إلى الداخل ..

هنا رأت (عبير) جحافل من الناس تهرع إلى المسجد .. من الواضح أن أكثرهم لم يعتد الصلاة فى هذا المسجد بالذات ، لكن خبر اكتشاف (الخليل) أحدث إثارة عظمى .. بدا لها أنه ما من واحد فى (البصرة) بقى فى بيته أو صلى فى مسجد آخر غير هذا .. غريب هذا الاهتمام باللغة الذى يقارب اهتمامنا بكرة القدم .. لكنه حقيقى ..

انتهت الصلاة فسمعت صوت (الخليل) الجهورى يتردد من داخل المسجد :

ـ « أيها العرب .. لكم أن تفخروا بشعركم فله قواعده الأصيلة التى اتبعها الأولون بالسليقة .. لقد وجدت أن إيقاع

الشعر يعتمد على الحركة والسكون بشكل ثابت .. لا يخرج الشعر العربى عن الأوزان : فاعلن وفعولن ومفاعيلن وفاعلتن وفاعلاتن ومستفعلن ومفعولات ومتفاعلن ومستفعلن .. من هذه الأوزان تتألف البحور .. وقد أمكننى أن أحصر خمسة عشر بحرًا من الشعر هى الطويل والمديد والبسيط والوافر والكامل والهزج والرجز والرمل والسريع والمنسرح والخفيف والمضارع والمقتضب والمجتث والمتقارب .. مثلاً بحر البسيط هو : مستفعلن فاعلن أربع مرات .. بحر الطويل هو : فعولن مفاعيلن أربع مرات .. »

طال الكلام الذى لم تفهم (عبير) أكثره حتى شعرت بأن أذنيها تستطيلان لتشبه حيوانًا وديعًا لا داعى لذكر اسمه ، وما أثار غيظها أن صيحات الاستحسان تتصاعد .. القوم فيهم تجار وسماكون ونجارون وباعة تمر لكنهم جميعًا يفهمون .. لابد أن مستواها العقلى لم يكن يسمح لها بدخول المدرسة أصلاً .. وربما لهذا كان مدرس العربية يقول لها كلمته المأثورة : إللى دخلك المدارس ظلمك ..

واحد من الجالسين بالداخل يصيح :

إلى أى بحر ينتمى البيت ؟ :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل .:. منى وبيض الهند تقطر من دمى

يتعالى صوت العالم العبقرى :

ـ « هذا على وزن (متفاعلن) تكرر ست مرات .. إنه بحر الكامل .. »

صاح واحد من الجالسين :

وبيت الشعر ؟ :

إلى هند صبا قلبى .·. وهند مثلها يصبى

يجيب (الخليل) :

ـ « الأمر سهل .. (مفاعيلن مفاعيلن .. مفاعيلن مفاعيلن) ، هذا بحر الهزج.. جرب أن تطبق القواعد التى شرحتها .. »

والبيت ؟ :

قادنى طرفى وقلبى للهوى .·. كيف من طرفى ومن قلبى حذار

ـ « هذا على وزن (فاعلاتن) ست مرات .. إن هذا بحر الرمل .. »

تتذكر (عبير) مشهدًا من مسلسل (الأيام) بينما (طه حسين) يبهر أساتذته الفرنسيين بالسوربون فى مناقشة رسالة الدكتوراه ، بينما صوت (على الحجار) الرخيم يردد : اليوم ده يا طه يومك ..

الحقيقة أن هذا يا (خليل) يومك بلا أدنى شك ..

طالت الجلسة .. وبدا أن الرجل أخرس أى معارض له وأنهك الجميع .. ثم سمعته يقول :

- « هناك بحور لم يفطن لها العرب .. لكنها موجودة ويمكن أن ننظم بها الشعر مثل الوزن (فعلن) بكسر العين أربع مرات .. لقد قمت بنظم قصيدة عليه تقول :

أبكيت على طلل طربًا .·. فشجاك وأحزنك الطلل

« وهناك بحر آخر يقوم على تكرار (فعلن) بسكون العين أربع مرات :

« هذا عمرو يستعفى من .. زيد عند الفضل القاضى »

« إنه بحر جديد أقترح أن يكون اسمه (المخلع).. »

عندما انتهت المحاضرة صلوا صلاة المغرب ثم خرج الحشد من المسجد .. الكل متحمس وتسمع (عبير) هذا الرجل أو ذاك يقيس على أصابعه أو يحاول تقطيع بيت شعر يحفظه ، وصاحبه يتهمه بأنه أحمق ، كأنهم يختلفون حول ما إذا كان الهدف الذى دخل مرمى الزمالك صحيحًا أم لا ..

لكن أين (سيبويه) فى هذا كله ؟

خرج الخليل فرأت (سيبويه) يتعثر حتى لحق به ، ثم انحنى ليمسك بيده ويقبلها ويسأله :

ـ « هل تقبل أن أدرس قواعد النحو على يدك ؟ »

نظر له الرجل في ضوء الغروب البارد وقال في وقار :

ـ « أنا لم أبخل بعلمي قط .. ما اسمك يا بني ؟ »

ـ « (عمرو بن عثمان بن قنبر).. أشتهر باسم (سيبويه).. »

هز الرجل رأسه محييًا وابتعد وسط زحام السائلين ..

وقف (سيبويه) يلهث فدنت منه .. لكنه لم يشعر بوجودها .. فقط همس :

ـ « لقد وجدت سيدي ! »

★ ★ ★

٥ـ رجل من مسك

هكذا انتظم (سيبويه) فى دروس الخليل ..

كان الأستاذ العجوز قد التقط الإشارة فصار يرحب بتلميذه فى كل مرة قائلاً :

ـ « مرحبًا بزائر لا يُملّ ! »

وهى عبارة قلما قالها لأحد ..

هكذا كان حب هذا الأستاذ العظيم يغرس جذوره فى نفس الفتى ، ويومًا ما سيكتب الفتى كتابه (الكتاب) فيستشهد بآراء (الخليل) فى ٣٧٠ موضعًا .. وربما فى ٥٢٢ موضعًا حسب بعض المصادر ..

كانت (عبير) تحضر الدروس من حين لآخر ، فتحاول فهم أى شىء.. أين كانت تقيم فى هذه الآونة؟ يمكننى أن أريحك فأصف العجوز التى سمحت لها بالإقامة معها بضعة أيام ، لكننا فى فانتازيا حيث لن تشغلنا أسئلة كهذه ..

ومن (سيبويه) عرفت قصة حياة (الخليل بن أحمد الفراهيدى) منذ كان صبيًا يتمنى الانضمام للخوارج دفاعًا عن الإسلام الذى أفسده الأمويون ، ثم كيف ثاب لرشده

وعرف أنه من الإثم أن ينفذ الشريعة بيده لمجرد أنه يراها صحيحة من وجهة نظره .. هكذا بدل خطته وانطلق لقتال الروم ..

العبقرى الذى لم يعتقد قط أنه عبقرى .. فقط كان يعتقد أن الناس من حوله أبطأ فهمًا مما ينبغى ..

عرفت أيضًا قصته فى صباه عندما قرر أن يكون معلمًا بعدما كان تلميذًا .. وكانت الطريقة لهذه الترقية أن يناظر أحد الشيوخ المعروفين فيسحقه .. هكذا تم ترتيب المناظرة مع أستاذه العجوز (أبو عمرو بن العلاء) الذى بلغ ثمانين حولاً ..

هذه المناظرة نالت اهتمامًا عظيمًا يذكرك بمناظرة (سيبويه) و(الكسائى) التى لم تتم بعد .. وقد احتشد الجميع لها متوقعين أن يهزم النابغة الصغير العبقرى الشيخ ..

جلس الشيخ المسن وبين يديه جلس التلميذ .. التلميذ الذى عليه أن يقهر أستاذه ويفوز بمكانه ..

راح الشيخ يستعرض مسائل النحو المعقدة حتى بلغ مسألة لم يكن بارعًا فيها تمامًا ، بينما كان الخليل قد قتلها تمحيصًا ..

مال صديق (الخليل) عليه يحثه على القتال .. حان الوقت ..

لكن (الخليل) أطرق وفضل الصمت ..

من جديد تعثر الشيخ فى نقطة أخرى ، فراح صديق الخليل يهزه هزًا كى يتدخل .. إن هذه النقطة مملكته .. لكن (الخليل) أطرق للأرض وراح يعبث فى أوراقه .. ماذا دهاه ؟ إنه يعرف الإجابة الصحيحة .. لا شك فى هذا ..

كان صديقه على وشك الإصابة بالفالج .. وراح يتلوى كمن يُشوى حيًا حتى انتهى الشيخ المسن من كلامه فلم يفتح (الخليل) فمه بكلمة .. وانتهت المناظرة ..

على الباب أمسك صاحبه به موشكًا على خنقه من الغيظ :

- « ما جدوى كل هذا ما دمت ستفضل الصمت ؟ لو تكلمت لصرت كبير النحاة فى البصرة ! أنت يا صاحبى جبان أو معتوه أو هما معًا .. »

لم يقاوم الخليل .. فقط أطرق للأرض فى أسف وقال :

- « للأسف لم أستطع .. رأيت هذا الشيخ فى الثمانين من عمره ، وقد علمنى وعلم الناس ستين عامًا .. وأنا كنت أريد أن أستخدم العلم الذى منحنى إياه كى أفضحه وأضيع حرمته ؟؟ لا .. لا فعلت ذلك أبدًا ! »

وقبل أن يتكلم صاحبه تركه وابتعد ..

سمعت (عبير) هذه القصة من (سيبويه) فبدت لها أقرب للخيال .. إلى حد ما يمكنها فهم شخصية صديق (الخليل) فسلوكه أقرب لنا .. إنه كائن من لحم ودم .. أما هؤلاء فكائنات أسطورية ..

على أنها لم تستبعد صحة هذه القصة عندما رأت موقفين غريبين ..

القصة الأولى كانت عندما جاء ركب مهيب من فرسان وسيوف براقة وخيول مطهمة .. هذا الركب راح يجتاز شوارع المدينة الضيقة حتى بلغ بيت الخليل ، فترجل قائده .. رجل منتفخ الأوداج معتد بنفسه متأنق كطاوس .. وعلى الباب طلب أن يستدعوا له (الخليل بن أحمد) لأنه موفد من أمير الأهواز .. قالها فى ضيق و(ألاطة) شديدين لأنه لم يتصور أن يمشى فى هذه الأزقة الفقيرة .

جاء من يحمل الخبر للأستاذ الجالس مع تلاميذه ومنهم (سيبويه) ، دب القلق فى الجالسين لكن (الخليل) قال لهم بلهجة آمرة :

- « لم ينته الدرس بعد ! »

ثم قال لمن جاء يناديه :

- « قل لرسول أمير الأهواز أن يأتى هنا فأنا لن أذهب له »

هكذا دخل الرسول القاعة وهو مغتاظ نوعًا .. إنها إهانـة لكن عنده رسالة لابد من توصيلها إذن فليبتلع الإهانة مرغمًـا .. حيا (الخليل) وجلس وهو يتنفس من منخريه كفرس هائج ..

بينما واصل الخليل الدرس كأن شيئًا لم يكن ..

عندما انتهى الدرس استدار بوجه بشوش لضيفه منتظرا أن يبدأ الكلام .

قال الضيف جليل الشأن :

- « سيدى أمير الأهواز (سلمان المهلبى) يرغب فى أديب يقيم فى قصره .. يسليه ويعلم أطفاله ويؤدبهم .. وقـد طلب منـى أن أقدم لـك هذا العرض مـع هديـة مائـة ألـف درهم .. إنها كافية لتغطية نفقات سفرك .. »

ساد الصمت .. وراحت (عبير) تفكر فى قيمـة هذا المبلـغ .. السمكة بدرهمين .. إذن هذه ثروة تساوى خمسين ألـف سمكة .. لكـن الخليل سيرفض .. كانت تعرف أنـه سيرفض .. هؤلاء العلماء العرب القدامى كانوا مولعين برفض إغراءات الأمراء.. والذين قبلوها منهم لم يعد التاريخ يذكرهم ..

نهض الخليل إلى خزانة صغيرة فتناول منها شيئًا وعاد بـه ملوّحًا .. إنها كسرة خبز جافـة .. أتعس كسرة خبز رأتها (عبير) فى حياتها ..

قال وهو يعود لمجلسه :

ـ « ما دامت هذه فى دارى فلست بحاجة للأمير .. أما الدراهم فهناك شعراء فقراء أولى بها منى .. »

نظر له الضيف غير مصدق .. ثم عاد يلح عليه فلم يلق إلا إصرارًا .. سأله على طريقة البرنامج الشهير :

ـ « هل هذا الجواب نهائى ؟ »

ـ « نعم .. وقل للأمير بيت الشعر هذا :

أبلغ سليمان أنى عنه فى سعة ∴ وفى غنى غير أنى لست ذا مال

سخا بنفسى أنى لا أرى أحدًا ∴ يموت هزلاً ولا يبقى على حال

نظر له الضيف طويلاً ثم هز رأسه فى حركة أنيقة وغادر الدار ..

ساد الصمت بعد رحيل الرجل ، فكان أول من تكلم (عبير) ذاتها .. الحقيقة أنها كانت تجد فى هذه المواقف نوعًا من الميلودراما وغريزة التفانى أكثر مما يحتمله الأمر .. فقالت مغتاظة :

ـ « سيدى .. هل يأمرك علمك بالفقر ؟ من الطبيعى أن يبحث المرء عن الرزق .. والرزق قد أتاك بدلاً من ... »

وصمتت تأدبًا وإن أفصحت عيناها اللتان اتجهتا إلى ثيابه الممزقة وبيته المتواضع عن كل شئ .. بمقاييس العصر وكل عصر هذا رجل فاشل اقتصاديًا ..

قال في غضب :

- « الأمير يريد أن أنقطع لتعليم غلام أو اثنين بدلاً من أن أعلم كل التلاميذ الذين ألقاهم هنا .. أن يصير كل ما أملك من علم ملكًا للأمير يأخذ منه ما يشاء ويترك ما يشاء .. يستخدمه للهزل أو التفكه أو ليتحدى به أقرانه .. أنا أحب المال حبًا جمًا لكنى أريده حقًا لا جدل فيه .. »

عادت تسأله وقد انفتحت شهيتها الصحفية :

- « لاحظت أن شعرك جيد جدًا فلماذا أنت مقل فيه ؟ »

قال في مرح وقد نسى غضبته الأولى :

- « ما أرتضيه منه لا يأتينى .. وما يأتينى منه لا أرتضيه ! »

إنها عقدة الناقد العبقرى الشهيرة .. عندما تتزايد ملكة النقد لا يعود المرء قادرًا على كتابة حرف واحد .. من المفيد أن يكون الأديب على درجة من السذاجة والغرور الطفولى وإلا لما كتب حرفًا ..

شىء من خلى

كيف كان تأثير موقف كهذا على (سيبويه) المنبهر دائمًا ؟ أنت تملك خيالاً فلن أطيل عليك !

* * *

« (الخليل بن أحمد) رجل من مسك ومن ذهب .. »

« لم يأت فى العرب بعد الصحابة من هو أذكى منه .. »

(مقولات المعاصرين عن الخليل)

* * *

الموقف الثانى الذى لم تستطع أن تنساه كان يوم وقف على باب الخليل رجل أعرابى ومعه ابنه ..

كان الرجل متعجلاً نافد الصبر .. حيا الخليل ثم قدم له ابنه وقال :

- « جئتك من سفر شاق لأنى سمعت عن عبقريتك .. أريد أن تعلم ابنى علم النجوم والنحو وما ينفعه من الطب وفروض الفقه ! »

حك الخليل رأسه وسأله :

- « كم عامًا تنوى تركه معى ؟ »

هتف الرجل فى ذهول :

- « أنا أنتظر على الباب مع حمارى إلى أن تعلمه لنرحل ! »

كتمت (عبير) ضحكتها وكـذا فعل تلاميـذ الخليـل ، لكن العالم الجليل لم يضحك .. بل وضع يديه على كتف الصبى وقال له :

- « لتعلم يا بنى أن الثريا فى وسط السماء .. هذا درس كاف فى علم النجوم .. الفاعل مرفوع وهذه من أهم حقـائق علم النحو .. بها بدئ هذا العلم ولعلـه بها يختم .. نبات (الهليلج الكابلى) مفيد للصفراء .. هذا يكفيك فى الطب .. أما عن الفقـه فحسبك أن تعرف أنـه لو مـات رجل تاركًا ابنين ، فثروته تقسم بينهما بالتساوى .. هذا يكفيك »

قال الأعرابى وهو يشد ابنه بطريقته العملية نافدة الصبر :

- « هلم يا بنى .. اشكر (الخليل) ولا تنس العلم الـذى قدمه لك .. »

وركبا الحمار ليبتعدا عن عيون الواقفين ..

قال (الخليل) وهو يعود لمجلسه :

- « هذا أقصر درس أعطيته فى حياتى لكن الرجل راض بما حصل عليه.. وهذا هو المهم »

ثم عاد إلى الداخل يواصل شرح العلم الجديد الذى ابتكره ..

من بين تلاميذه اليوم كان تلميذ هو أقرب للمعلم .. إنه (الأصمعى) الشهير .. عجوز وقور يرغب فى أن يفهم سر العروض هذا ..

المشكلة هى أن الرجل ظل عاجزًا عن فهم هذا العلم .. شرح له الخليل طريقة تقطيع الأبيات ألف مرةً ، لكن الشيخ كان عاجزًا تمامًا عن إجادة هذا الفن ..

لم يقنط الخليل وراح يجرب بلا جدوى .. أيقن الطلاب أن الأصمعى لن يفهم العروض أبدًا ، وفى الوقت ذاته من يجرؤ على مصارحة الأصمعى بأنه لا جدوى من جهده ؟

قال (الخليل) للعالم :

- « هل تستطيع أن تقطع قول الشاعر :

إذا لم تستطع شيئًا فدعه ∴ وجاوزه إلى ما تستطيع

راح الأصمعى يحاول تقطيع البيت عدةَ مرات .. ثم توقف ونظر إلى الخليل .. هنا فهم .

لقد وصلته الرسالة كاملة ..

هكذا نهض وطلب الإذن بالانصراف ، ولم يعد بعدها قط ..

فى هذه اللحظة اقتحم الغرفة تلميذ حديث السن يحمل ورقة يجرى بها ملهوفًا.. من الواضح أنه قصير النظر لأنه تعثر فى الجالسين ، وهتف وهو يلتقط أنفاسه :

ـ « سيدى .. تداركت شيئًا بالغ الأهمية ! »

فى وقار رفع (الخليل) يده :

ـ « فيما بعد يا (أخفش).. فيما بعد .. إننى لم أنهِ الدرس بعد »

جلس الطلاب حول الخليل ، وكان من الطبيعى أن يوجد بينهم من يرى فى نفسه القدرة على امتحان أستاذه .. على سبيل الغرور أو سبيل العبث ..

المهم أن أحد الطلاب سأله :

ـ « ما معنى قوله تعالى ﴿رب ارجعون﴾ ؟ »

أطرق الشيخ مفكرًا .. أطال التفكير والكل ينظر له فى توتر .. متى يتكلم ؟

بعد قليل رفع رأسه وقال :

ـ « لا أعرف الجواب .. »

صمت التلاميذ جميعًا احترامًا لهذه الصراحة ، فمن قال لا أدرى فقد أفتى .. لكن ضحكة ساخرة تعالت من أحد

الجالسين .. نظر له الجميع فرأوا نظرة وقحة متهكمة لا شك فيها على وجهه القبيح ..

قال الخليل بهدوء :

- « الرجال أربعة : رجل يدرى ويدرى أنه يدرى .. ذلك عالم فاسألوه .. ورجل لا يدرى ويدرى أنه يدرى .. فذلك جاهل فعلموه .. ورجل يدرى ولا يدرى أنه يدرى .. فذلك غافل فأيقظوه .. ورجل لا يدرى ولا يدرى أنه لا يدرى .. فذلك أحمق فارفضوه ! »

برغم العرق الذى سال منه قرر الطالب أن يسأل أستاذه سؤالاً معضلاً آخر ..

من جديد راح العالم الكبير يطيل التفكير .. فقال الفتى فى وقاحة :

- « لمَ تطيل التفكير ؟ ليس الأمر بهذه الصعوبة ! »

فى برود قال الخليل :

- « عرفت الحل منذ زمن ، لكنى أبحث عن إجابة تفهمها أنت .. وقد أرهقنى هذا ! »

كانت ضربة .. ضربة محسوسة جداً كما يقول (شكسبير).. ونظر الجميع إلى الفتى فلم يجدوا الوقت الكافى لذلك ، لأنه غادر المجلس ..

★ ★ ★

٦ـ رجل من ذهب

كانت (عبير) جالسة تصغى لدرس من دروس الخليل عندما جاء رجل يحمل رسالة إلى الأستاذ العجوز .. قال الرجل القادم ككارثة :

ـ « هذا خطاب بالعربية من ملك الروم .. لقد سمع عن نبوغك فأرسل لك هذه الرسالة »

فتحها (الخليل) ونظر فيها .. ورمش بعينيه ثم ناولها لـ (سيبويه) أقرب التلاميذ له .. نظر لها الأخير فلم يبد عليه الفهم وقال :

ـ « هذه ليست لغة عربية .. »

قال الذى جلب الرسالة :

ـ « بل هى بالعربية .. أؤكد لك هذا .. »

وقعت الورقة فى يد (عبير) فألقت عليها نظرة .. إن لها خبرة بالحروف اليونانية القديمة منذ عاشت (الإلياذة) و(الأوديسة) لهذا قالت فى ثقة :

ـ « هذه حروف يونانية قديمة .. لكنى لا أذكر كيف تُقرأ .. »

فكر الخليل قليلاً ثم غمغم :

ـ « ملك الروم يختبر ذكائى .. هذا واضح .. لكنه يعرف أننى لا أعرف اليونانية »

ثم نهض متجهًا إلى غرفة داخلية .. وجلس الضيف يبتسم فى ثقة .. لقد جلب الشرك معه وهو يعرف أنه معجز .. سوف يفشل العبقرى حتمًا ..

قالت (عبير) لـ (سيبويه) :

ـ « هذا اختبار عسير .. »

قال (سيبويه) فى ثقة :

ـ « سوف يحله .. إن عقل هذا الرجل لا يعجز عن شىء .. »

بعد نصف ساعة عاد الخليل حاملاً ورقة عليها كتابة بالعربية وناولها الضيف وقال :

ـ « هل هذه رسالتك ؟ »

أصيب الرجل بالذهول وكذا التلاميذ .. هتف (سيبويه) مذهولاً :

ـ « كيف فعلتها ؟ »

ضحك الخليل وقال وهو يتخذ مجلسه :

- « كرر الرجل مرتين أن الرسالة بالعربية .. وملك الروم يعرف أننى أجهل معانى الكلمات اليونانية .. هكذا فهمت أنهم استخدموا الحروف اليونانية ليكتبوا لى بها نصًا عربيًا .. »

قال تلميذ مشاغب يدعى (كيسان) :

- « وهل هذا سهل ؟ »

- « ويحك يا (كيسان) .... ولماذا أعطانا الله العقل إذن ؟ بما أن هذه الرسالة كتبت بالعربية فلابد أنها بدئت بـ (بسم الله الرحمن الرحيم).. هكذا قارنت حروف أول سطر لأعرف كيف تكون الباء والسين والميم والألف واللام والراء .. إلخ فى اليونانية .. ثم رحت أقرأ النص .. فإذا وجدت لفظة أعرف أكثر حروفها استنتجت الحروف الباقية .. عندما تجد لفظة (الرسـ..ل) فإنك تستنتج أنها (الرسول) وهكذا تعرف شكل حرف الواو لدى اليونانيين ، من ثم كونت الأبجدية اليونانية كلها .. »

قالت (عبير) منبهرة :

- « فيما بعد سيستخدم رجل يدعى (شامبليون) هذه الطريقة لفك رموز الهيروغليفية .. كما سيستخدمها رجل يدعى (إدجار آلان بو) فى قصة (الحشرة الذهبية) »

لم يفهم أحد ما تقول ففضلت الصمت ..

تناول الضيف الرسالة فى إجلال ثم غادر المجلس ليعود لملك الروم..

هنا قال (الخليل) :

ـ « لقد أفادنى هذا .. لابد من وضع كتاب يشرح طريقة التفكير فى حل الألغاز .. سوف أطلق عليه اسم (المعمى).. ما رأيك فى أن تساعدنى فى هذا الأمر يا (كيسان) ؟ »

ـ « أمرك يا سيدى »

مسح الأستاذ وجهه ثم قال فى تعب :

ـ « عم كنا نتكلم قبل وصول هذا الضيف ؟ »

فى هذه اللحظة اقتحم الغرفة التلميذ حديث السن الذى يجرى ملهوفًا.. كما هى العادة تعثر فى الجالسين ، وهتف وهو يلتقط أنفاسه :

ـ « سيدى ..هناك شىء مهم .. »

فى وقار رفع (الخليل) يده :

ـ « فيما بعد يا (أخفش).. فيما بعد .. »

★ ★ ★

المشروع العملاق الثانى لـ (الخليل) كان تعديلاً على طريقة تشكيل الحروف التى ابتدعها العلامة (أبو الأسود الدؤلى) ..

المشكلة هى أن النقاط التى وضعها (الدؤلى) لضبط حركات الحروف كانت تتداخل مع نقاط الحرف ذاتها .. صحيح أن نقاط التشكيل كانت تكتب باللون الأحمر ، لكن (الخليل) كان يراها غير مريحة للعين .. دعك من حاجة الخطاط إلى استخدام حبرين ..

فكرة (الخليل) كانت أن يرسم على الحرف نفس حرف المد الذى يناسب حركته .. فإذا كنت تضم الحرف رسمت فوقه واوًا صغيرة .. وإذا كنت تكسره فلتضع تحته ياءً صغيرة .. أما إذا كنت تفتحه فلتضع فوقه ألفًا صغيرة ..

لم يسترح الناس لهذا التعديل وحاربوه .. إلا أنهم بدءوا يأخذون به بعد وفاة (الخليل) بدهر .. وسرعان ما دخلت هذه الطريقة علم القراءات .

المشروع الثالث له كان عمل معجم كامل للغة العربية .. جمع كلمات المعجم بطريقة قائمة على الترتيب الصوتي ، فبدأ بالأصوات التى تخرج من الحلق وانتهى بالأصوات التى تنطق من الشفتين ، وهذا الترتيب هو (عـ حـ هـ خـ غ ...) وسمّاه معجم (العين) باسم أول حرف فى أبجديته ..

كانت (عبير) الآن تهيم إعجابًا بهذا الرجل حتى أنها بدأت تنسى (سيبويه) نوعًا .. لكن (سيبويه) كان ينضج وتتبلور شخصيته كلما اقترب التاريخ الذى سيتفرد فيه وحده بسلطة النحو فى البصرة .. وهو التاريخ الذى قابلته فيه أول مرة .

لكن (الخليل) كان شخصية فاتنة بحق .. العلم والزهد والكبرياء وقد أنضجتهم السنون ..

ذات مرة حضر له من يدعى (يونس) .. دعنى أخبرك أولاً أن (يونس) شخصية مشاغبة مشاكسة ، وهو من كارهى (سيبويه) لأن (الخليل) يحبه .. لكن هذا ليس موضوعنا ..

كان (يونس) قد أعد لأستاذه شركًا .. مسألة نحوية تبدو سهلة لكن إذا توغلت فيها اكتشفت أنها كارثة(*) ..

جلس بين يدى الأستاذ وببراءة سأله عن هذه المسألة ..

أطرق الخليل يفكر ولم يقل شيئًا ... راح (سيبويه) وزملاؤه يتواثبون كأنهم على نار .. فالمسألة يستطيع أن يحلها طفل .. حتى (عبير) شعرت بأنها تستطيع حلها .. لكن (الخليل) ظل صامتًا يفكر ..

يفكر .. يفكر .. يفكر .. يفكر .. يفكر .. يفكر ..

(*) للأسف لم أجد نص هذا السؤال ..

اقتحم الفتى المتحمس المكان حاملاً ورقة وهتف :

- « سيدى .. لقد تداركت شيئًا مهمًا . »

قال له الطلاب فى حزم :

- « اسكت يا (أخفش).. إن الأستاذ يفكر . »

من الواضح أن ضعف بصره جعله لا يرى توتـر الموقف.. هكذا تراجع شاعرًا بالخجل وإن ظل قلقه متأججًا ..

فى النهاية أعلن (يونس) أنه مضطر للانصراف ..

ما إن توارى حتى تصايح التلاميذ فى غضب :

- « لماذا لم تجبه وتخرسه يا أستاذنا ؟ »

وقال (سيبويه) :

- « لو طلبت من أصغرنا أن يرد لفعل .. »

قال (الخليل) باسمًا :

- « كنتم ستقولون له كذا وكذا ؟ »

- « نعم .. »

- « عندها كان سيسألكم عن كذا .. »

ـ « كنا نرد عليه بـ (كذا).. »

ازدادت ابتسامته إشراقًا وقال :

ـ « فإن قال لكم (كذا وكذا) فبم تجيبون ؟ »

تبادلوا النظر واحمرت الآذان .. حقًا لم يخطر ببالهم هذا المأزق ..

قال (الخليل) فى حزم :

ـ « تلومونني على تأخرى فى الجواب .. بينما أنا لا أجيب أبدًا إلا وقد عرفت آخر ما يصل له من يجادلنى .. ليس عيبًا أن تؤخر الجواب .. العيب كل العيب أن يسرع العالم فى الإجابة ثم يكتشف أنه كان مخطئا .. إن خطأ العالم يضرب له الناس بالطبول وهو عيد من أعياد الجهل .. »

★ ★ ★

فى ذلك الصباح نادى (سيبويه) وقال له :

ـ « الناس بحاجة إلى كتاب فى النحو .. أراك قادرًا الآن على تأليف هذا الكتاب .. أما أنا فصحتى لم تعد تتحمل هذا الجهد .. »

هز (سيبويه) رأسه فى هيبة معتبرًا هذا عهدًا ..

ربت الشيخ على كتفيه وأخبره بأنه ذاهب إلى المسجد ..

هذا هو آخر ما سمعه ورآه (سيبويه) من أستاذه وسيده .. القصة التى نقلها له الباكون قالت إن (الخليل) مشى إلى السوق فسمع جارية تتشاجر مع بائع الدجاج لأنه غالطها فى الحساب .. الرجل يؤكد أن حسابه مضبوط وهى تصرخ وتتهمه بالنصب ..

قال (الخليل) لمن معه :

- « الحساب عسير على جارية بائسة كهذه .. لابد من طريقة لتبسيط جدول الضرب بحيث لا يخدعها أحد ثانية »

كان الآن فى المسجد فخلع نعليه ومشى شارد الذهن يفكر .. لو أن هناك طريقة لتسهيل العمليات الحسابية .. لو أن هناك طريقة لتسهيل العمليات الحسابية .. لو أن هناك طريقة لتسهيل العمليات الحسابية .. لو أن هناك .... طاخ !!!

التفت الجميع ليروه على الأرض والدم الغزير الأسود ينزف من جبهته .. لقد اصطدم بعامود فى المسجد وهو شارد الذهن غارق فى حساباته ..

حملوه إلى داره ..

لكن النتيجة المؤسفة كانت واضحة للعيان .. هذا الشيخ لن يعيش ليتلقى ضربة أخرى .. لقد قتلته عبقريته ويا لها من ميتة !...

على الباب جاء الفتى الملهوف المصاب بقصر النظر إياه صائحًا :

ـ « يجب أن أقابل (الخليل) ! هناك شىء مهم تداركته .. »

قال له (سيبويه) فى حزم :

ـ « ليس هذا أنسب وقت يا (أخفش).. إن العالم يوشك على لقاء ربه »

اللحظة كانت مهمة بالنسبة لـ (عبير) باعتبارها سبقًا صحفيًا ، فهى أول ـ وآخر ـ صحفى فى العالم يحضر وفاة (الخليل) ، لكنها لم تستطع تحمل العويل المجنون للتلاميذ خاصة (سيبويه) الذى ركع على ركبتيه يلثم يدى (الخليل) اللتين ما زالتا دافئتين وإن كان برد القبر يزحف عليهما.. (سيبويه) سوف يهلك حزنًا .. سوف يصاب بالجنون ...

مات (الخليل بن أحمد الفراهيدى) الذى لم يأت فى العرب بعد الصحابة رجل أذكى منه ..

لكنه خالد ما بقيت اللغة العربية بينما نحن متنا منذ دهور ..

سوف يخلده كل من وضع علامة التشـكيل على حرف ، وكل من تلا القرآن الكريـم تـلاوة صحيحـة ، وكـل مـن فتـح المعجم بحثًـا عن كلمـة ، وكـل شـاعر سـهر الليل محـاولاً إصلاح قصيدة مكسورة ..

سوف يتذكره (سيبويه) طويلاً جدًا..

★ ★ ★

٧- سيبويه وحيداً

تنظر (عبير) إلـى (سيبويه) فتراه قد ازداد نضجًا .. السنون قد رسمت علامتها على كل سنتيمتر من وجهـه .. ذلك الخليط العجيب من المعاناة والعلـم وكبريـاء العـالم وتواضع من يعرف أنه لا يعرف ..

اليوم هو كبير نحـاة البصرة ، وهو شرف لـم يطلبـه .. لعلـه كـان يتمنـى أن يظل للأبد قابعًا بين يدى (الخليـل) يغترف منـه العلم .. من الصعـب أن تكـون أنـت الحجـة الأخيرة .. ألا يكون هنـاك من تنظر لأعلـى نحـوه طالبًـا النصح .. أن يطـالبك النـاس بالعطـاء وأنـت تشـعر بالحاجـة للأخذ ..

الآن كان (سيبويه) يشعر بهمٍّ مقيم . فهناك على عاتقـه إنجاز مهمة ذلك الكتاب فى النحو الذى كان آخر شىء طلبه منه (الخليل)..

كان غارقًا فى التفكير عندما اندفع نحوه ذلك الفتى الـذى صار تلميذًا له .. كان يلهث كعادته وهو يحمل لفافة ورق :

- « سيدى (سيبويه).. هنـاك أمر مهم قد تداركتـه .. إننى .. »

فى حزم قال (سيبويه) :

- « لا وقت عندى لسماع ما تريد قوله يا (أخفش).. »

انصرف الفتى ، فقالت (عبير) باسمة :

- « اسمه (الأخفش) ؟ اسم غريب حقًّا .. »

قال (سيبويه) وهو يعبث فى لحيته :

- « (الأخفش) معناها ضعيف البصر .. فى علم النحو هناك ثلاثة (أخافيش).. نحن نطلق على هذا (الأخفش الأوسط) واسمه الأصلى (سعيد بن مسعدة).. وهو طالب علم مجد .. لكنه يأتى دائمًا فى الوقت غير المناسب .. »

ثم قال مبتسمًا :

- « هناك بين تلاميذى اسم غريب آخر يأتى صاحبه فى أوقات أغرب .. إنه (قطرب).. »

قالت فى دهشة :

- « معلوماتى أن (قطرب) هذا هو الاسم المعرب لداء (لايكانثروبى Lycanthropy).. أى (مرض الرجل الذئب) .. »

- « اسمه الأصلى (محمد بن المستنير).. أما القطرب لغويًا فدابة لا تستريح ولا تكف عن السعى .. أطلقت عليه

هذا الاسم بسبب حماسه ونشاطه اللذين يجعلانه يقرع بابى بمجرد طلوع الشمس ... إن له شأنًا عظيمًا .. ولديه اهتمام بالغ بمعانى القرآن الكريم والمثلث اللغوى .. أى الأسماء الثلاثية التى يفتح أولها أو يضم أو يكسر فيعطى معانى مختلفة .. »

قالت فى حيرة :

ـ « حتى هذان تلميذان لك .. ؟ »

هنا هب واقفًا .. كانت قد حفظت هذه العلامات .. علامات (حتى) المميزة .. وأدركت أن لسانها انزلق فقالت له :

ـ « آسفة .. لتنس ما قلت .. »

قال مذهولاً :

ـ « (حتى هذان) .. لماذا رفعت (هذان) ولم تجرّيها باعتبار (حتى) حرف جر ؟ »

ـ « لا أدرى .. لعله الشيطان أغرانى بذلك »

عاد يفكر ثم قال عابثًا فى لحيته التى غزاها الشيب :

ـ « بل هذا صحيح .. (حتى) هنا استعملت كأداة ابتداء زائدة . (هذان) مرفوعة لأنها مبتدأ .. »

قالت فى كياسة :

- « لا أدرى سبب ما يصيبك كلما ذكرت كلمة (حتى).. »

قال مهمومًا :

- « حتى لحظة موتى ! سأموت وفى نفسى شىء من (حتى).. لم أسترح لإعرابها قط .. إنها تتخذ كل الأشكال الممكنة فى الإعراب .. حتى التى تنصب المضارع .. حتى حرف الجر . حتى البادئة .. حتى التى تعمل عمل الواو .. هذه الكلمة تثير غيظى »

ثم تنهد فى عمق وقال :

- « ما علينا .. لكل شأن حينه »

ثم شمر عن ذراعيه وبسط أمامه قرطاسًا ووضع دواة الحبر ، وكتب (بسم الله الرحمن الرحيم).. كانت هذه أول صفحة فى كتابه العملاق فى علم النحو ..

★ ★ ★

كانت (عبير) تتأهب فى تلك الأيام ..

لقد اقتربت المباراة جدًا .. كانت تحمل عددًا لا بأس به من شرائط التسجيل ، لكنها قررت أن تفرغ ما تم تسجيله حتى لا تنقصها الشرائط فى الوقت الحاسم . وهكذا وجدت

نفسها تجلس إلى ذات القمطر مواجهة لـ (سيبويه) وتستضىء بالشمعة ذاتها .. وراحت تغمس ريشتها فى ذات المحبرة التى يدون بها كتابه ..

قال لها وهو يتابع ما تكتبه :

ـ « لقد تدهور الخط عندكم كثيرًا جدًا ! »

هزت رأسها فى عناد :

ـ « شكرًا .. »

عاد يشير بريشته إلى ورقتها وقال :

ـ « لا تضعى همزة تحت ألف الفعل الخماسى ولا السداسى .. بالمناسبة .. هذه الكلمة منصوبة لأنها مفعول لأجله .. »

جمعت مفكرتها فى عصبية وبحركة صبيانية كانت تمارسها منذ عشرين عامًا ، وقالت :

ـ « اسمع .. لو كنت تنوى أن تحيل حياتى جحيمًا فأنا لن أكتب حرفًا أمامك .. »

قال باسمًا :

ـ « كل ما هنالك هو أننى أمقت أن أفنى عمرى من أجل هذه اللغة ، ثم أرى ما صنعتموه بها فى زمنكم .. أنت توشكين على تحويلها إلى لغة جديدة .. »

قالت وهى تفتح المفكرة من جديد :

- « اطمئن .. عندنا علماء لغة ونحن نعرف قيمتها جيدًا .. لنقل إننى واحدة من الدهماء الذين هم عبء على العلماء .. والآن ما هى خططك بالنسبة للمناظرة ؟ »

قال وهو يعبث فى لحيته :

- « لا شىء .. سأذهب إلى بغداد .. أهزم (الكسائى).. أعود للبصرة »

- « هذا برنامج طموح بحق .. »

وعاد يواصل الكتابة بينما هى تتأمله فى اهتمام ..

ببطء أدركت أن نظراتها تذوب فى قسمات وجهه الوسيم.. نفضت رأسها لتفيق لكن الشعور الغريب الممض عاد يداهمها ..

إنها تميل له .. ربما تحبه كذلك .. لا تعرف متى ولا كيف استولى هذا الشعور على روحها لكنها أفاقت لتجد نفسها مغموسة حتى العنق فى هذا ..

إنها واقعة فى حب عالم لغوى من العصر العباسى ! هل هو الجنون ؟

الحقيقة أنه من الصعب أن تقاوم أنثى سحر (سيبويه).. يجب ألا ننسى أنه كان وسيمًا وكان رقيقًا وكان حالمًا ..

والأهم أنه لا يشعر بوجودها على الإطلاق .. لا يشعر بوجود الأنثى ذاتها على الإطلاق ..

كانت تتساءل : لماذا لا يتزوج برغم أنه فى الأربعين من عمره ؟ هذا شأن الباحثين عن هدف أعظم من أن تستوعبه الكلمات .. إن أجدر الرجال بالحب لا يبحثون عنه ، وهى حقيقة أثارت قلق الأنثى عبر العصور .. التافهون يلاحقونها بعبارات الغزل وينشدون الشعر تحت شرفتها ، بينما (سيبويه) لا يهتم بشعر الغزل إلا ليقطعه ويحدد ما فيه من أوتاد ناقصة .. إن أهمية (قيس بن الملوح) عنده هى أنه شاعر جيد فقط ...

كانت تفكر : من المستحيل ألا يميل لى .. لقد شهدت معه قسطًا هائلاً من حياته وحضرت معه دروس الخليل .. لكنه يعتبرنى مجرد صديق طيب لطيف ..

لست قبيحة ولا منفرة .. لست غبية جدًا .. فقط لو أظهر بعض الاهتمام .. بعض المبالاة .. أنا لن أنتزعه من علمه ولن أحطم مستقبله .. فقط فليمنحنى شهادة بأننى حسناء ولسوف أنساه بعدها .. عندما يمنحنى شخص بهذه العبقرية شهادة بأننى حسناء فهذا يكفينى ..

حتى هذه النظرة المتفحصة الطويلة لم يلحظها ..

لا .. ليس حتّى . من فضلك ليس حتى .. لو فكرتَ فى (حتّى) ولم تلفظها لسمع أفكارها وانتفض ..

فى هذه اللحظة اقتحم الأخفش المكان ، وتعثر كعادته فى (عبير) التى لم يرها.. ثم هتف :

- « هل لى أن أشرح الشىء الذى تداركته ؟ »

قال (سيبويه) فى حزم :

- « فيما بعد يا (أخفش).. فيما بعد.. »

هكذا غادر الرجل الدار مرتبكًا متوترًا ..

★ ★ ★

انتهى الكتاب ..

قنبلة علم النحو .. الكتاب الذى لم يسمه (سيبويه) بأى اسم فقرر المعاصرون أن يطلقوا عليه اسم (الكتاب).. هكذا بلا أية إضافات .. كأنه يغنى عن أى كتاب آخر ..

الكتاب الذى ألقوا عليه اللوم لأنه فكر فى كل شىء فلم يترك شيئًا لعلماء النحو المعاصرين .. هكذا ألقى بهم فى حفرة النسيان ..

وكما قلنا من قبل استشهد بآراء (الخليل) فى ٣٧٠ موضعًا .. وربما فى ٥٢٢ موضعًا حسب بعض المصادر .. إن (الكتاب) هو أنشودة حب تخلد (الخليل) الذى اختلف معه فى بعض الآراء لكنه فى النهاية ينحنى أمامه تهيبًا ..

يوم المناظرة يقترب و(عبير) تزداد توترًا ..

ترى ماذا ينتظر هذا العبقرى ؟



٨ ـ قررت أن أتزوج

دخلت عليه ذات صباح فوجدته يقرأ قصيدة وقد بدا عليه الغيظ .. ثم دعاها لتدنو منه وقرأ الأبيات بصوت عال :

تلاعب نينان البحور وربما .:. رأيت نفوس القوم من جريها تجرى

ثم هتف فى ضيق :

ـ « ما رأيك فى هذا الهراء ؟ »

قالت وهى تهز كتفيها :

ـ « حتى أعرف أنه هراء لابد أن أفهمه أولاً.. »

قال وهو يلقى القصيدة جانبًا :

ـ « هذا شعر (بشار بن برد).. والنون لا تجمع على (نينان) ... هذا الرجل يخرف .. »

مر جزء من اليوم .. وعند الظهيرة انفتح الباب بقوة كأن عاصفة اجتاحته ودخل رجل هو أبشع من رأته (عبير) فى حياتها .. كان كفيفًا ضخمًا قبيحًا له رائحة خبيثة .. باختصار كان يشبه كفار قريش كما تراهم فى المسلسلات الدينية ..

هذا هو (بشار بن برد) .. شاعر المجون الشهير سليط اللسان الذى لا يحترم أحدًا ولا يؤمن بأية عقيدة ولا يرعى أية حرمة.. والذى وصفه شاعر ماجن منافس له قائلا :

وأعمى يشبه القردا ∴ إذا ما عمى القرد

مر جوارها فشمت أخبث رائحة شمتها فى حياتها ، لكنه كذلك شم رائحتها وعرف أن هناك امرأة هنا .. لذا أدار رأسه ينظر لها بعينين لا تريان نظرة وقحة لزجة ..

قال (سيبويه) دون أن ينهض :

ـ « أقدم لك أخبث شعراء العصر العباسى .. (بشار بن برد) الذى قال شعرًا يسترضى جارية كى تمنحه بعض الطعام فقال :

ربابة ربة البيت ∴ تطبخ الخل بالزيت

لديها سبع دجاجات ∴ وديك حسن الصوت

قالها فى ازدراء من هذا الشعر الرديء الذى كان الدافع له هو (الدناوة) وهو أغرب غرض شعرى فى تاريخ الشعر العربى .. لابد أن الجارية سرت بهذا الكلام الفارغ وأعطته ما يسد رمقه .. على الأقل هو خلدها فى تاريخ الشعر العربى ..

قال (بشار) وهو يدق الأرض بعصاه دقًا :

ـ « سمعت أنك انتقدت شعرى أيها الفارسى .. أنا قد جمعت (نون) على (نينان) كما تجمع أنت (حوت) على (حيتان) و(غول) على (غيلان).. أنا لا أخطئ . »

تمنت (عبير) أن تنتهى المحادثة كى يرحل هذا الكريه، لكن (سيبويه) قال فى تحد :

ـ « وماذا عن بيت شعرك القائل :

على الغزلى منى السلام فربما .:. لهوت بها فى كل مخضرة زهر ؟ »

ـ « ما باله أيها الفارسى ؟ »

ـ « (الغزلى) هذه لفظة من اختراعك أنت ولم يستعملها العرب .. أردت أن تعبر بها عن (الغزل) »

بصق (بشار) على الأرض ثم أطلق صيحة عظيمة .. وقال ملوحًا بعصاه :

أسيبويه يا ابن الفارسية ما الذى .:. تحدثت من شتمى وما كنت تنبذُ ؟

أظلت تغنى سادرًا بمساوئى .:. وأمك بالمصرين تعطى وتأخذُ »

ثم غادر الغرفة متعمدًا أن يحتك بـ (عبير) في غلظة ، فهتفت في اشمئزاز وهي تتراجع :

ـ « أوف ! (جاتكوا البلا) !! »

ظل (سيبويه) جالسًا حيث كان ، ثم قال في وقار :

ـ « هذا هو ما يجنيه العالم من فظاظة العامة .. لقد شتم أمي .. »

كانت (عبير) قد فهمت هذا الجزء .. هي (وصلة ردح) من التي تسمعها في الحارة كثيرًا .. يقول (بشار) ما معناه : لا تنشغل بنقدي أيها الفارسي الذي يجهل أسرار العربية.. عليك أولاً أن تهذب سلوك أمك !

قال (سيبويه) :

ـ « من الخير ترك (بشار) وشأنه .. إنه سليط اللسان قذر الأفكار ، لكني لا أطيق أن أرى خطأ في اللغة دون تصحيح .. إنها رسالة مقدسة »

المشكلة هي أن الغرفة يجب أن تظل مفتوحة لمدة ساعتين حتى تزول رائحة هذا الشاعر الكريه .. ولو عرفت (عبير) أنه سيموت جلدًا بتهمة الزندقة بعد أعوام لشعرت بلذة لا توصف ..

* * *

ثم جاء اليوم الذى لم تتوقعه قط ..

لقد زارت (سيبويه) فى داره فوجدته سعيدًا مرحًا كما لم تره من قبل .. منذ زمن لم تر حمرة الرضا تغزو خديه .. ومنذ زمن لم تر عينيه تتسعان بعدما أنهكهما العلم ..

سألته وهى تفتح النوافذ ليدخل ضوء الشمس :

ـ « هل حللت مشكلة (حتى) ؟ »

ـ « بالطبع لا .. قلت إننى سأموت وفى نفسى شىء من (حتى) »

ـ « إذن ما سر هذه السعادة ؟ »

نظر لها وفى فخر قال :

ـ « قررت أن أتزوج ! »

نظرت له مليًا ثم أطرقت خفرًا ..

لقد نجحت !

ربما لن يذكر التاريخ هذه الحادثة لكنها لن تنسى أبدًا أنها من أقنع (سيبويه) بالزواج .. راهب العلم قد غادر محرابه عندما رأى (عبير).. هناك بيت شعر شهير قيل فى بغداد يومًا يقول :

سلوا الجميلة فى الخمار الأسود ∴ ماذا فعلت بزاهـد متعبـد ؟

قد كـان شـمر للصـلاة ثيابه ∴ حتى برزت له بباب المسـجد

برغم وقاحة بيت الشعر الذى يتحدث عن ناسك ترك الصلاة لدى رؤية حسناء بخمار أسود ، فإن التاجر الذى علق هذه اللافتة فى بغداد باع كل خمار أسود فى متجره قبل أن ينتهى اليوم ! والحقيقة هى أن شاعرًا نظم هذا البيت خصيصًا على سبيل الدعاية لتجارة صاحبه ..

(عبير) فعلت الكثير براهب العلم الذى قرر التخلى عن حياة الوحدة من أجلها .. ولسوف يأتى الناس ليروا من (عبير) هذه وتموت النسوة غيظًا .. إنها النجمة فى حفل تكريم لم تره عين من قبل .. تتقدم للمنصة باكية .. تصعد وسط التصفيق .. تنحنى للجمهور وترسل بأناملها قبلة تحية لهم ..

كان انفعالها حارقًا حتى أنها بدأت تبكى كصنبور تالف .. وانهارت لتجلس ..

قال وهو ينظر لها بدهشة :

ـ « لم أتوقع أنك بهذه الحساسية .. إن (نتيلة) سوف تهيم بك حبًا ! »

ـ « من ؟ »

ـ « (نتيلة) .. إنها زوجتى المقبلة .. سوف أعرفك عليها ! »

هذه المرة ازداد بكاؤها حرارة وتحول الصنبور إلى ماسورة مياه رئيسية مكسورة فى ميدان التحرير .. ثم تحولت الماسورة إلى شلالات نياجرا .. فراح يربت عليها فى تحفظ مرددًا :

ـ « ما أرقك ! حتى أمى ما كانت لتبكى فرحة بى كما تفعلين أنت ! »

★ ★ ★

العلماء أشد الناس غباء فيما يتعلق بمشاعر الأنثى ..

قالتها لنفسها وهى ترمق فرحته .. هو لم يفهم لحظة أنها تهيم به حبًا .. وحسب كل هذه الدموع تأثرًا من الفرحة .. عندما تبكى المرأة من أجل الرجل فهو لا يعرف هذا أبدًا .. لماذا ؟ لأنه أحمق .. لأنه غافل .. لأنه لا يثق بنفسه .. لأنه .. لأنه اختار أخرى ..

الآن يتقدم الهودج نحوه .. ينيخ العبد الجمل .. يتقدم (سيبويه) ليزيح الستار عن عروسه التى تضع النقاب .. يزيح النقاب ..

العلماء أشد الناس حمقًا فى تمييز جمال المرأة ..

قالتها (عبير) لنفسها وهى ترمق العروس .. ليست قبيحة لكنها بالتأكيد ليست بالقادرة على اقتناص هذا الغزال المراوغ ..

تضحك العروس فيتسع منخراها وتلتمع عيناها فى وحشية لربع ثانية.. تعبير لم تتعمده لكن وجوهنا تخوننا كثيرًا ، كما لخصها التعبير القرآنى البليغ ﴿خائنة الأعين﴾ ... تعرف (عبير) هذه النظرة على الفور .. نظرة الاستيلاء .. هذه المرأة قد اقتنصته ولن تفلته أبدًا ..

تنظر لها العروس ضاحكة .. لكن نظرتها تقول بوضوح : نحن نفهم بعضنا جيدًا أيتها الحية .. فنحن امرأتان .. الرجال حمقى تمامًا فى هذه الأمور .. لقد تغيرت قواعد اللعبة ، فلا تتحدثى بهذا الهراء الذى تقولينه عن الصحافة المستقبلية وما إلى ذلك .. (قديمة يا روح ماما) ... لن أسمح لك بالجلوس معه ثانية ، ولن أسمح لك بمحاولة انتزاعه منى ..

وعبير تقول عيناها : أنت نجحت فى خداعه لكنه سوف يدفع الثمن .. إنه برىء لا يفهم شيئًا فى النساء وهو لا يعرف أنه يستقبل جلاده لا عروسه !

فى اللحظة ذاتها تتصافح المرأتان وتتبادلان اللثمات على الخدود كعادة النساء .. إنهن بارعات فى إخفاء الكراهية ..

ممه .. ممه .. ممه .. ما أروعك يا روح قلبى .. ما أجملك يا حبيبتى !

فيفرك (سيبويه) كفيه فى سعادة ويصيح :

ـ « أسعدنى أنكما متحابتان ! »

العلماء أشد الناس غفلة عن علاقات النساء المعقدة ..

فى هذه اللحظة برز الفتى الذى يعرق كأنه جاء من تحت الأمطار وهتف ملوحًا بورقة :

ـ « هلا شرحت لك ما تداركته يا سيدى ؟ »

نظر له (سيبويه) فى حزم وقال :

ـ « تختار أغرب الأوقات أيها (الأخفش).. حتى لو شرحت لى فليس عقلى معى .. »

ومد يده يمسك بكف عروسه التى يراها حسناء ..

العلماء أشد الناس سذاجة عندما يختارون زوجاتهم ..

★ ★ ★

٩ـ نيران الحقد

توارى (سيبويه) عن الأنظار أسبوعًا أو نحو ذلك ..

فى النهاية قررت (عبير) أن تزوره لتعرف هل صدق حدسها أم لا .. حتى لو كان ثمن هذا إهانة عابرة من العروس التى هى (سته) فى كل شىء .. (ست) لفظة عربية صحيحة معناها أنها تحيط به من الجهات الست : شرق وغرب وشمال وجنوب وفوق وتحت ..

على باب الدار سمعت الصراخ .. توقفت باسمة فى شىء من الخبث وسألت نفسها : لماذا لا تشعر بدهشة أو ذهول ؟ لماذا لا تشعر بحزن ؟ فقط بما أنها فى معقل اللغة العربية تتذكر مقطعًا من الشعر :

« أضاعونى وأى فتى أضاعوا ! »

صراخ المرأة يتعالى من داخل البيت (من المعتاد أن يعلو لهذا الحد بعد خمس سنوات .. لكن هذه المرأة تسبق عصرها) :

ـ « أنا هنا كائن حى .. عندى أحاسيس ومشاعر وأنت تفضل أن تمضى يومك ذاهلاً كأبله وسط كتبك .. »

(سيبويه) يقول بصوت قلما يرتفع :

ـ « تزوجتنى وأنت تعرفين أننى عالم لغة .. هل تغيرت ؟ »

ـ « لم تتغير وكنت أحسبنى قادرة على هذا .. لكن أى علم ؟ هل سال على رءوسنا الذهب مدرارًا مقابل علمك هذا ؟ نحن إلى الفقر أقرب ! »

عاد يقول :

ـ « لم أزعم أننى ملك الفرس .. أنت تعرفين من هو (سيبويه).. ليس لديه مال إلا علمه وتقدير طلابه »

انطلقت المرأة تسب بمجموعة من الشتائم الفصحى العبقرية التى لم تعرف (عبير) أنها فصحى من قبل .. ثم صاحت :

ـ « حتى خبزك شحيح جاف ! »

سمعته (عبير) يصيح فى دهشة :

ـ « ماذا ؟ (حتى خبزك) ؟ لماذا نطقت (الخبز) مجرورة ؟ إن (حتى) هنا ابتدائية لا محل لها من الإعراب . »

صرخت المرأة فى جنون :

ـ « أنت من لا محل له من الإعراب !! »

ويخرج (سيبويه) ممتقع الوجه ليرى (عبير) .. بدا عليها الحرج وقالت :

- « آسفة .. تبدو متضايقًا .. »

قال وهو يجد السير محرجًا قليلاً إذ أدرك أنها سمعت المحادثة الرقيقة :

- « نعم .. نعم .. إن مشكلة (حتى) هذه تزداد سوءًا !! »

- « أتكلم عن المشاجرة التى ...... »

- « لا مشكلة هنالك .. امرأة (سقراط) كانت تلقى الماء القذر عليه وهو جالس مع تلاميذه ، فكان يقول لهم ضاحكًا : المطر يهطل غزيرًا بعد العواصف .. ليتنى مثل سقراط .. »

ثم قال لها وهو يبتعد :

- « سأذهب إلى السوق .. »

- « ليكن .. »

فكرت (عبير) : يبدو أن هذا أنسب وقت لبدء الرحلة إلى بغداد .. لقد صار وقت المناظرة دانيًا ..

لم تكن موجودة لتعرف باقى القصة ..

عرفت أن (سيبويه) ذهب إلى السوق ليبتاع خبزًا له وامرأته .. ثم عاد إلى الدار متمهلاً غير شغوف بلقاء النمر الذى ينتظره ..

هنا وجد الدخان يخرج من النافذة ..

هرع مذعورًا إلى داخل الدار ليجد كل كتبه.. كل مراجعه .. كل أوراقه تحترق فى كومة عظمى مخيفة الشكل ، بينما (نتيلة) عروسه الرقيقة تهلل فرحًا وطربًا .. لو كانت تعرف هذه الأمور لرقصت بالرمح حول النيران ..

- « هاها ! لقد أحرقتها ! لن يشغلك شىء عنى بعد الآن !! »

صاح فى هلع :

- « كتاب النحو ! لقد أحرقت كتاب النحو ! »

وجرى محاولاً أن ينقذ شيئًا فلم يستطع .. احترقت كفاه بينما المرأة تصيح فى جنون كأنها إلهة نار وثنية منسية :

- « هل تنوى أن تحترق فى دنياك كما ستحترق فى آخرتك بسبب إهمالك لى ؟ »

- « كتاب النحو ! لقد أحرقت كتاب النحو ! »

وفى كل لحظة يكتشف مفاجأة باسمة أخرى ..

- « مذكراتى عن (الخليل) ! لقد احترقت ! »

- « دراساتى عن مخارج الحروف ! لقد احترقت ! »

فى النهاية سقط فاقد الوعى آملاً أن يفيق ليجد أن هذا كابوس ..

للأسف لم يكن الأمر كذلك .. التاريخ يخبرنا أن هذا حدث فعلاً ولم يكن كابوسًا ..

كان أسوأ من الكابوس ..

* * *

لما عرفت (عبير) بالقصة شعرت بشعور لم تتوقعه قط ..

إنه نوع من الشفقة يغمرها تجاه هذه المرأة التى ظلمت أنوثتها إلى درجة الجنون .. ثمة قصة شهيرة عن (الفارابى) - أم هو (الجاحظ) ؟ - الذى سكبت حماته المحبرة على أوراقه ، فلما احتج قالت قولتها الخالدة : هذه المحبرة أخطر على ابنتى من ألف ضرة !!

(عبير) تفهم هذا .. وتفهم كذلك أن (سيبويه) تلقى ضربة قاصمة ..

فى الأيام التالية لم يسترح العالم العظيم لحظة .. لقد سهر الليالى يستعيد من الذاكرة كتاب النحو المدعو (الكتاب).. ولولا هذا الإصرار لما سمعنا عنه ..

فى النهاية عاد الكتاب حيًا يرزق .. وأعتقد أنه طلق زوجته فالتاريخ لا يحكى أنه خنقها ..

لكن حادثًا كهذا لابد أن يترك شيئًا محطمًا فى داخلك .. لم تعد الحياة كما كانت ، وجاء اليوم الذى قال فيه لـ (عبير) :

ـ « أنا راحل لـ (بغداد) غدًا من أجل المناظرة .. هذا وقت مناسب لترك البصرة .. »

وافقته فى حرارة وبدأت تعد أمورها للسفر معه فى ذات القافلة ..

★ ★ ★

١٠ـ بغـــداد

تمضى القافلة نحو (بغداد)..

قال الحادى وهو يجر لجام الناقة :

ـ « لن نتوقف حتى نبلغ العاصمة »

يخرج (سيبويه) رأسه من الهودج ليسأله فى فضول :

ـ « ماذا قلت ؟ لماذا نصبت كلمة (نبلغ) ؟ »

ـ « لا أدرى .. بدا لى هذا أكثر فصاحة .. »

ـ « بل لأن (حتى) هنا عملت كأداة تنصب الفعل المضارع .. إنها قررت أن تكون (كى) للحظات .. لكن هذا الاستعمال غير صحيح .. المفترض أن .... »

ثم غاب رأسه داخل الهودج ليعيد حساباته ..

ثمة جواد يركض لاحقًا بالقافلة .. نظر الجميع إلى راكبه فلم يعرفوه .. فقط (عبير) أدركت أنه (الأخفش) قصير النظر الذى يصر على إيصال رسالته التى لا يعرف إلا الله محتواها..

ـ « سيدى (سيبويه) .. هل يمكن أن تصغى لى لحظة ؟ »

وإن صوته ليتهدج بسبب خبب الجواد الذى يهز الهواء فى رئتيه ..

أطل رأس (سيبويه) من الهودج وقال فى نفاد صبر :

ـ « تكلم .. »

أخيرًا ! هتف الرجل غير مصدق :

ـ « أتكلم ؟ »

ـ « أنت سمعتنى .. »

قال (الأخفش) فى حماس :

ـ « هناك بحر نسيه الخليل ! بحر سادس عشر وقد تداركته ! »

هتف (سيبويه) فى ذهول :

ـ « ما هو ؟ »

ـ « إنه (فاعلن) ثمانى مرات .. لكن يمكن أن يدخله نوع من الزحاف اسمه (الخبن) فيصير : (فعلن) ثمانى مرات ! ومثال ذلك بيت الشعر :

يا ليل الصب متى غده ؟ .·. أقيام الساعة موعده ؟

صاح (سيبويه) وهو يوشك على السقوط من الهودج من فرط الحماس :

- « وماذا أطلقت على هذا البحر ؟ »

- « لا أدرى .. »

- « إذن سمه (المتدارك).. لأنك تداركته بعدما أغفله (الخليل) ! »

أخيرًا أتم (الأخفش) إبلاغ رسالته فانطلق بالحصان عائدًا إلى البصرة .. ولسوف يذكر التاريخ أبدًا أن بحر (المتدارك) اكتشفه (الأخفش) تلميذ (سيبويه)..

عاد (سيبويه) يسترخى وهو يجرى حساباته المعقدة بصدد هذا البحر ، فلابد أن هذا سلاه طيلة الرحلة إلى بغداد ..

★ ★ ★

(بغداد) العظيمة ..

واحدة من أهم مدن العالم إن لم تكن أهمها بالفعل ..

استقر (سيبويه) هناك عند (يحيى بن خالد البرمكى) وزير (هارون الرشيد) لأن له مكانة عظيمة ، ووجدت (عبير) سكنًا متواضعًا تقيم فيه .. ثم راحت تقضى وقتها لمدة يوم ونصف فى لقاء الناس فى الشارع لتسألهم عن رأيهم فى المناظرة ..

تاجر الحبوب (أبو عبيد الثمدانى) قال لها وهو يصلح عمامته :

ـ « شهرة (سيبويه) عظيمة ، لكنه غير معروف أو محبوب هنا .. أعتقد أنه سيخسر ما لم تحدث معجزة .. »

ثم قال وعيناه تلمعان :

ـ « متى تنشرون هذا الحوار معى ؟ »

ـ « سوف ننشره بعد ١٢ قرنًا .. فى الصفحة الأولى ! »

بدا عليه الحماس المجنون :

« لن أطيق صبرًا حتى أبتاع هذه الجريدة .. »

الجارية (رميداء) قالت لـ (عبير) وعيناها الدعجاوان ترمقانها من فوق (اليشمك) :

ـ « أعتقد أن (سيبويه) سيكسب .. »

ـ « ولماذا تثقين بهذا ؟ »

ـ « لأنه .. لأنه وسيم ! »

وهو منطق لا بأس به .. الوسامة مبرر كاف جدًا لأن يربح المرء مباراة فى النحو..

فقط واحد انتحى بها جانبًا وقال همسًا :

- « أرجو ألا تقومى بتسجيل ما سأقول .. »

- « ليكن .. »

قال وهو يتلفت حوله :

- « (الكسائى) لن يسمح لـ (سيبويه) بالفوز بأى ثمن .. »

- « تعنى أنه سيقهره بعلمه ؟ »

- « بل سيقهره بالخداع .. بشهود الزور .. بالرشوة .. لو كنت مكانك لنصحت هذا العالم البصرى بأن يعود لقواعده .. (بغداد) هى مملكة الكسائى .. »

وفارقها مسرعًا .. فوجدت أنها تقف وحيدة حائرة فى معنى ما قال .. كانت تعرف أنه صادق دقيق فى كلامه .. يسهل معرفة الصدق عندما تسمعه ...

هذه ليست حربها ولا يعنيها الأمر فى شىء . لكن (سيبويه) يهمها بالتأكيد ..

هل تنذره ؟ حتى لو فعلت فلن يصغى لها ..

* * *

الآن أقدم لك (الكسائى)..

هو (على بن حمزة بن عبدالله الأسدى) .. اسم يوحى بالرهبة ، والرجل كذلك رهيب .. إنه متقدم فى السن لهذا يعتبر (سيبويه) الذى تجاوز الأربعين طفلاً..

مهنته إمام نحاة الكوفة .. وهو المفضل عند الخليفة الأسطورى (هارون الرشيد).. وليس فى نيته أن يتنازل عن هذه المكانة أمام صبى من البصرة فى الأربعين من عمره .

قالوا إنه أعلم الناس بالنحو ، وإن قراءته للقرآن قراءة نهائية بمعنى أنه لا يجب أن يختلف الناس بعدها ..

لهذا كانت له جلسات مشهورة يقرأ فيها المصحف ، بينما يجلسون حوله يضعون العلامات ويضبطون قراءتهم على قراءته .. لم يكن جهاز التسجيل معروفًا فى هذا الوقت لهذا كانت هذه هى الطريقة الوحيدة .. ليس هذا غريبًا إذ تذكرنا أن جهاز التسجيل لم يكن موجودًا حتى فى عصر الشيخ (محمد رفعت) القارئ الأسطورى .. كانوا يسجلون على أسطوانات شمع بدائية. فلما ظهر جهاز التسجيل تم استنقاذ هذه الدرر ، ولولاها لما سمعنا عن الشيخ (رفعت) أصلاً.. وهذا يفسر ذلك الصوت الخشن والضوضاء العامة المصاحبة للتسجيلات..

إذن الصراع هنا بين مدرسة (البصرة) ومدرسة (الكوفة)..

لقد بقى (سيبويه) فى الدار حتى جاء يوم المناظرة..

حول المكان ـ الذى كان بيت (الأمين) ـ كان زحام من الناس منهم من يشجع الكسائى ومنهم من يشجع سيبويه .. لا أستبعد أنه كانت هناك هتافات تردد : كسائى .. كسائى .. أوه .. أوه .. وربما كانت هناك احتكاكات ومشاجرات ..

ذات الحماس الذى يذهب به الناس لمباريات كرة القدم اليوم ، وهو ما يجعل المرء مذهولاً من هذا الاهتمام الذى كانت تلقاه اللغة العربية قديمًا .. فى فيلم (أماديوس Amadeus) كانت هناك مباراة ساخنة بين السكارى فى إحدى حانات (فيينا) إذ راحوا يتحدون موتسارت كى يعزف لهم مثل (باخ) أو (هاندل) ! كان عندنا دهماء يتسلون بمناظرات علم النحو وكان عندهم دهماء يتسلون بالموسيقا الكلاسية .. يبدو أن ذوق الناس ينحدر باستمرار ..

(عبير) تجرى هنا وهناك عالمة أن هذه اللحظة هى المبرر الوحيد لمجيئها هنا .. لا تريد أن تضيع كلمة واحدة ..

جاء (سيبويه) وسط تلاميذه شاحبًا قليلاً.. فهو بلغة كرة القدم لا يلعب على أرضه .. الجمهور ضده .. لكن ثقته فى علمه كانت قوية ، وسمعته (عبير) يهمس بآيات

قرآنية ثم يردد اسم (الخليل) ... كأنه يطلب من روح أستاذه أن تكون معه اليوم ..

الآن جاء (الكسائى) .. ضخمًا مرعبًا يحيط به أتباعه .. على رأسه عمامة وزنها قنطاران وعلى كتفيه عباءة فاخرة وطيلسان .. تذكرت (عبير) لحظة دخول أبطال المصارعة قبل أن ينزعوا الروب ليلوحوا بالحزام الذى كسبوه فى مباريات سابقة ..

غير أن أبطال المصارعة ميالون للجعجعة أما (الكسائى) فكان باردًا ثابت الجنانِ .. فقط نظراته النارية يمكنها أن تخثر اللبن أو تقتل طفلاً ..

وقف الرجلان وسط الحلبة .. فساد الصمت ..

لا يوجد حكام لأن الرجلين هما الحكمان الوحيدان .. ما من أحد يعرف ما يعرفان ..

بصوت غليظ ثابت قال (الكسائى) :

ـ « هل تبدأ أنت بالسؤال أم أسأل أنا ؟ »

قال (سيبويه) :

ـ « ابدأ أنت »

أوشكت (عبير) على قضم أظفارها بالكامل .. لكنها قررت أن تلعب دورها بمهنية .. لا وقت للعواطف ..

بدأ (الكسائى) يوجه بعض الأسئلة التى أجاب عنها (سيبويه) بكفاءة ..

وبدأ التوتر يزول شيئًا فشيئًا ..

* * *

١١ـ المسألة الزنبورية

يؤمـــل دنيـــا لتبقى لـه .:. فمـات المؤمّل قبـل الأمل
حثيثا يروى أصول النخيل .:. فعاش الفسيل ومات الرجل

(سيبويه)

★ ★ ★

قال الكسائى وهو يمشى ببطء فى المكان كأنه فى حلبـة مصارعة ينتظر اللحظة ليثب فى بطن خصمـه وينـال لمس الأكتاف :

ـ « ما رأيك فى العبارة التالية : كنت أحسب أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فإذا هــو هــى .. أم : أحسـب أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فإذا هو إياها ..؟ »

لو كـانت (عبير) قد قرأت عن الموضوع من قبـل ، لعرفت أن هذه هــى (المسـألة الزنبوريـة) .. سؤال نحوى عويص يعرفه دارسو اللغة جيدًا ..

قال (سيبويه) فى ثقة :

ـ « هو الرفع .. أى : (أحسب أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فإذا هو هى) .. »

عاد الكسائى يسأله :

- « ما رأيك فى العبارة التالية : خرجت فإذا عبد الله القائمُ .. أم عبد الله القائمَ ؟ »

عاد (سيبويه) يقول :

- « القائمُ .. بالرفع .. »

قال (الكسائى) وهو يواصل دورته البطيئة الاستعراضية :

- « بل يجوز الرفع والنصب فى المثالين .. »

- « الرفع فقط »

- « يجوز الاثنان .. »

هنا تدخل (يحيى بن خالد) ليلطف الجو .. فقال فى تلطف :

- « اختلفتما وأنتما رئيسا بلديكما .. فمن يحكم بينكما ؟ »

هذه هى مشكلة المباراة أصلاً.. الحكم هو أحد المتصارعين .. لا أحد يستطيع أن يدلى بحجة تلزم هذين العبقريين بقبول رأيه ..

هنا قال الكسائى وهو يشير للخارج :

- « الأعراب .. أعراب الحطمة .. إنهم يجيدون العربية إجادة تامة وهم يقفون على الباب .. »

هنا نادى (يحيى) طالبًا أن يدخلوا الأعراب .. دخل أربعة رجال ضخام الجثة تبدو عليهم الشراسة .. أسماؤهم هى (أبو فقعس) و(أبو دثار) و(أبو الجراح) و(أبو ثروان).. لقد خلدها التاريخ لنا ..

مالت (عبير) تهمس لأحد الواقفين جوارها محتجة :

- « هؤلاء جاءوا مع (الكسائى) ... إنهم أصدقاؤه ! »

لم يرد الرجل فوقفت تتابع ما يحدث فى توتر .

صاح أول الأعراب ملوحًا بسيفه فى الهواء :

- « والله أصاب (الكسائى) ... إن ما قاله صحيح ! »

سأله (يحيى) وهو يحك رأسه تحت العمامة :

- « أبو فقعس .. هل تعنى أنه الرفع أم الرفع والنصب معًا ؟ »

بدت الحيرة على وجه الأعرابي ، فهو لم يسمع موضوع المناظرة على الإطلاق .. لقد جاء لمهمة محددة هى شهادة الزور وهو يريد الفراغ منها بسرعة كى يرحل بما نال من مكافآت .. هكذا قال مرتبكًا :

- « الصواب ما قاله الكسائى .. »

التفت (يحيى) نحو الآخرين ، فلوحوا بالسيوف وهتفوا بصوت واحد :

- « الصواب ما قال الكسائى .. إنه الرفع ! »

- « الكسائى لم يقل هذا .. قال بالرفع والنصب ! »

- « إذن هو الرفع والنصب .. والله صدق الكسائى ! »

وتصايح الأعراب وهم يلوحون بالسيوف كأنها حرب داحس والغبراء .. فنظر (يحيى) إلى (سيبويه) فى حرج وقال :

- « أعتقد أنك قبلت التحكيم .. »

إنها اللعبة القديمة : التلاعب فى التحكيم .. تنجح دومًا .

أطرق (سيبويه) برأسه ولم يدر ما يقول ، فرفع (يحيى) ذراع (الكسائى) وصاح :

- « المناظرة للكسائى ..! ... »

تصايح الناس وراحوا يهللون ويتبادلون التهانى .. لقد سحق رجلهم هذا الفتى الأخضر القادم من البصرة .. أما

الكسائى فلم يبتسم أو يحيى خصمه .. فقط اقترب من (يحيى) وهمس فى أذنه بشىء ثم غادر القاعة ووراءه أتباعه ..

انفض الجمع ..

لم يبق واقفًا إلا (سيبويه) ممتقع الوجه يطيل النظر إلى أبعاد أخرى ..

دنا منه (يحيى) فدس فى يده شيئًا .. نظر (سيبويه) لهذا الشىء فوجده صرة مال ..

قال (يحيى) فى حرج :

- « هذه عشرة آلاف دينار أوصانى الكسائى أن أمنحها لك »

لم يبد على وجه (سيبويه) أنه سمع ما قيل أو فهمه ..

يرى وجه (الخليل) ووجه (حماد بن سلمة) وكل أساتذته العظام .. يرى وجه أمه .. يسمع صوت بشار بن برد القبيح يقول :

أسيويه يا ابن الفارسية ما الذى .:. تحدثت من شتمى وما كنت تنبذُ ؟
أظلت تغنى سادرًا بمساوئى .:. وأمك بالمصرين تعطى وتأخذُ

دنت منه (عبير) وربتت على كتفه لكنه لم يشعر بوجودها ..

★ ★ ★

ـ « لحنت يا (سيبويه) ... (ليس) هنا أداة استثناء .. (أبا) منصوبة لأنها مستثنى »

★ ★ ★

« على أنها فهمت فيما بعد أن هذا جزء من حساسيته الشديدة .. تلك الحساسية التى يشعر بها لأنه فارسى الأصل ومهما حقق من انتصارات سيظل العرب ينظرون له على أنه لا يجيد العربية مثلهم ..

« السبب الآخر لهذه الحساسية هو أنه ذو كبرياء .. إنه من الطراز الذى نطلق عليه فى العامية (عنده دم).. وقد شعر بأنه أهين بصوت عال فى حلقة الدرس .. فلابد أن هذا حز فى نفسه كثيرًا .. »

★ ★ ★

ـ « لا جرم .. سأطلب علمًا لا تلحنَى فيه .. »

ـ « لا جرم .. سأطلب علمًا لا تلحنَى فيه .. »

- « لا جرم .. سأطلب علمًا لا تلحنَى فيه .. »

- « لا جرم .. سأطلب علمًا لا تلحنَى فيه .. »

* * *

قالت له (عبير) فى رفق :

- « ليست هزيمة فى الحرب .. هى مجرد مناظرة أدبية وقد خسرت فيها . الأمر لا يستحق هذا كله.. »

نظر لها فى حدة وقال :

- « لم أهزم ! »

عادت تصحح مسار كلامها فقالت فى رفق أكبر :

- « لقد خدعوك بمكيدة قذرة .. لكن الأمر لم يكلفك مالاً .. لم تفقد صحتك .. لم تُسجن .. كل ما هنالك أنهم اعتبروا رأيك خطأ .. »

قال فى ضيق وهو يبتعد جارًا قدميه :

- « حسبت الخداع فى كل مكان فى العالم ما عدا محراب العلم .. حتى هنا يوجد تحايل وتزوير ورشوة .. »

- « ما كان الكسائى ليقبل الهزيمة على أرضه .. »

صاح فى عصبية أخافتها :

ـ « ولماذا لا يقبل الهزيمة ؟ أنا كنت سأقبلها لو فعلها فى البصرة وكان الحق معه .. عندما تتغلب كبرياء العالم على قدسية العلم فعلى الدنيا السلام .. نحن نطلب العلم للعلم ولا نطلبه كى نبدو أعظم ويلتف حولنا المعجبون .. »

كان يقول هذا وهو يتجه إلى الباب ..

هناك وقف للحظة كأنه يفكر ..

قالت له وهى تلحق به :

ـ « الآن أنت عائد إلى البصرة ؟ »

نظر لها نظرة وحشية من نظرات ذوى الكبرياء التى توشك أن ترى دمعة تغطيها .. وقال فى ثبات :

ـ « لن أعود إلى البصرة أبدًا !! »

★ ★ ★

١٢ـ غروب عبقرى

(سيبويه) صاحب الكبرياء ..

لقد هزم فأبى أن يعود مهزومًا إلى الأرض التى اعتبرته بطلاً لها .. أبى أن يرى الشفقة أو خيبة الأمل أو الدهشة فى عيون محبيه ..

هكذا ركب ناقته ..

ركبت (عبير) ناقتها هى الأخرى ، وإن سألته وهى تقاوم ذلك الشعور المخيف بأنها معلقة من أرجوحة توشك على السقوط :

ـ « آى !! إلى أين أنت ذاهب ؟ »

ـ « إلى (خراسان) .. سأعيش هناك للأبد ! »

وتنطلق الناقتان نحو (خراسان).. لقد أنهت (عبير) مهمتها ، لكنها ما زالت غير راغبة فى ترك هذا العبقرى الجريح .. تنظر للوراء فترى صرة المال ملقاة وسط الرمال .. كانت تتوقع هذا على كل حال ..

تستمر الرحلة .. وتغرب الشمس ..

فى المساء جلس يداعب النيران المشتعلة بغصن شجرة ساهمًا .. سألته وهى تثبت بعض التمر على غصن شجرة كى تشويه :

- « لم تأكل شيئًا .. »

هز رأسه فى حزن وراح يرمق النيران .. ذهول اللهب فى عينيه ..

قالت وهى تناوله قربة ماء :

- « حتى الماء لم تشربه منذ الصباح .. »

ثم أدركت أنها ارتكبت غلطة جسيمة لأنه رفع عينيه نحوها .. بدا أنه سمع شيئًا مهولاً ثم قال :

- « (حتى الماء) .. هذه (حتى) الابتدائية .. »

- « هل ما زال فى نفسك شيء من (حتى) ؟ »

قال وهو يواصل مداعبة النار بالغصن :

- « لن أتعب نفسى أكثر من ذلك .. على الأقل عرفت بضعة استخدامات لـ (حتى) سأكتفى بها .. هناك (حتى) حرف الجر بمعنى (إلى) .. أوضح مثال لها الآية الكريمة ﴿ سلام هى حتى مطلع الفجر ﴾ .. هناك (حتى) حرف

العطف التى تعمل مثل (الواو) ... مثال قول الشاعر (قهرناكم حتى الكماة).. الكماة هنا معطوف على منصوب لأن (حتى) تلعب دور (الواو) ... هناك (حتى) الابتدائية التى لا دور لها فى الإعراب .. كما فى (حتى أنت يا بروتس).. الأمثلة الثلاثة يمكن تطبيقها على (أكلت السمكةَ حتى رأسها) .. يمكنك جر (رأس) إذا اعتبرت حتى حرف جر . يمكنك نصب (رأس) باعتبار حتى حرف عطف .. يمكنك رفع (رأس) باعتبار حتى ابتدائية وتكون الجملة (حتى رأسها أكلته).

« هناك حتى التى تنصب الفعل المضارع أى تعمل عمل (كى).. بشرط أن تكون هناك (أن مضمرة).. مثلاً (سأعمل حتى أكسب المال) معناها الحقيقى هو (سأعمل إلى أن أكسب المال).. يجب أن يكون معناها (كى) أو (إلى أن).. »

نظرت له فى غباء .. لم تفهم شيئًا .. فعاد يقول :

ـ « (حتى) تعنى (إلى) وتعنى (كى) وتعنى (و) وتعنى لا شىء .. كل هذا فى الوقت ذاته .. لكنى لم أذكر كل شىء .. هذا يكفى لما تبقى من عمرى .. »

راحت تشوى التمر وهى ترقب وجهه فى قلق ..

ثمة جو عام يوحى بالنهاية ..

هذا لا شك فيه ..

* * *

فى خراسان ..

حيث الجو الفارسى الحزين الذى يذكرك بفن المنمنمات .. يرقد العالم العظيم على (الدشت) والحمى تقهره .. و(عبير) تصب الماء على خرقة تضعها على جبينه .. مملكتى مقابل كبسولة من المضاد الحيوى .. هكذا تقول لنفسها .. كان فى حقيبتها بعض (الكيتوفان) ككل فتاة ، لذا جربت أن تعطيه حبة أو اثنتين لتخفيض حرارته لكن الذعر أصابه لأنه لم ير قط عقارًا بهذا الشكل لا يقدم فى قارورة .. رفض بإباء أن يجرب حبة واحدة..

لم تستطع قط أن تفهم المبرر القوى الذى يدفعه إلى الموت وهو فى سن الأربعين .. أى أنه سيموت بينما أكثر أساتذته أحياء .. يمكنها أن تعرف السبب لكنها لا تفهمه .. إنه يموت لأنه هزم فى مباراة لغوية ! هذا يبدو غريبًا .. يبدو مضحكًا .. لكنه ليس غريبًا لهذا الحد إذا تذكرنا مدى حساسيته واعتداده بنفسه .. إذا تذكرنا كيف صار هو اللغة العربية واللغة العربية هو .. إذا تذكرنا القسم الرهيب الذى اتخذه على نفسه فى صباه :

- « لا جرم .. سأطلب علمًا لا تلحنّى فيه .. »

لقد فقد الرغبة فى الحياة ، وهكذا صار أضعف فيروس برد قادرًا على تدميره .. إنها حالة (إيدز) نفسية لا شك فيها .. العلم لم يصف الإيدز النفسى لكنى أعرف يقينًا أنه موجود .. الأم التى تموت بعد وفاة ابنها بشهر .. الفتاة التى تفقد حبيبها فتضمر وتموت خلال أسابيع .. رئيس التحرير الذى عنفه (السادات) أمام الجميع فعاد لداره ومات .. موظف (تشيكوف) الذى عطس فى وجه موظف كبير لم يقبل اعتذاره فعاد لداره وتوفى خلال يومين .. (سيبويه) مثال واضح يضاف لهذه الحالات ..

يقترب منها ذلك الشاب الذى يحمل ذات ملامح (سيبويه).. إنه أخوه .. يجلس جوارها ويمسك بيد أخيه ويقبلها ..

يقول (سيبويه) بصوت مبحوح :

يؤمل دنيا لتبقى له .. فمات المؤمّل قبل الأمل

حثيثا يروى أصول النخيل .. فعاش الفسيل ومات الرجل

ثم مد يده ليمسك بأناملها .. يقربها من شفتيه الجافتين .. لم تفهم ما يريد عمله حتى اللحظة الأخيرة .. لقد لثم أطراف أناملها وهمس :

ـ « شكراً لك .. لقد كنت معى فى كل لحظة .. لم تخذلينى قط .. لم تخذلينى حتى .. حتى .. »

ولماذا لم تقل هذا من قبل ؟ لماذا لا يعترفون بهذه الأسرار إلا على فراش الموت .. رفعت بدورها أنامله لفمها وألصقتها بشفتيها ..

وعندما فتحت عينيها رأته يحدق فى لا شىء ...

لقد مات ....

عرفت هذا يقيناً عندما لم تتصاعد رائحة التفاح من أنفاسه ..

عندما قال(حتى) ولم يعلق عليها ..

قبل أن تنفجر فى البكاء الهستيرى شعرت بمن ينهضها من على الأرض ..

انفجرت فى البكاء والمخاط قبل أن تدرك أنها تبكي فوق سترة سوداء حديثة .. رفعت عينها لتجد المرشد واقفاً هناك وهو يبتعد بها عن فراش الموت ..

قال لها :

ـ « لا داعى لتعذيب أخيه ببكائك الذى لا نفع منه .. فلنبتعد .. »

قالت وهى مستمرة فى البكاء :

ـ « لن أتركه الآن .. هناك واجب أخير يجب أن أقوم به نحوه »

قال كأنه يخاطب طفلاً أحمق :

ـ « لن تفيدينه بشىء .. »

للحظة كان الغضب أقوى من الحزن ، فقالت فى عصبية وقد آذت الكلمة أذنيها :

ـ « (لن تفيديه بشىء).. يجب أن تنصب الفعل المضارع بحذف النون لأنه متصل بياء المخاطبة ! »

هز رأسه باسمًا وقال :

ـ « لقد تقدمنا كثيرًا جدًا .. فليرحم الله أيام كنت تتحدثين عن (مصححين اللغة) .. والآن هيا بنا .. »

ـ « على الأقل يجب أن أعود لرئيس التحرير كى أسلمه المقال »

ـ « فلتعتبرى أنها وصلت .. صدقينى لم تعد هناك فائدة من بقائك هنا .. لا فى هذا الزمن ولا أى زمن آخر .. لقد انتهت القصة .. والآن هل تختارين (يا مرشدًا أنقذنى) أم (يا مرشدُ أنقذنى) ؟ »

قالت بلا تردد وقد شعرت بحاجتها للفرار من هذا الألم :

- « يا مرشدُ أنقذني .. أنت نكرة مقصودة .. »

- « والنكرة المقصودة سوف تنقذك »

استسلمت له كطفل وهو يقتادها عبر بستان تفاح جميل يلعب فيه بعض الصبية ..

(أبو أسود الدؤلى) .. (الخليل بن أحمد).. (الكسائى).. (حماد بن سلمة).. (الفرائى).. (الأخفش) ... (قطرب).. (ابن مالك).. كل هؤلاء العلماء الذين أفنوا حياتهم كى يحفظوا هذه اللغة من العبث ومن الاندثار .. سوف يبقون خالدين كلما وضع أحدهم علامة التشكيل على حرف ، أو تلا القرآن الكريم تلاوة صحيحة ، أو فتح المعجم بحثًا عن كلمة ، أو سهر الليل محاولاً إصلاح قصيدة مكسورة ..

لكن (سيبويه).. (سيبويه) سيبقى محتفظًا بمكانة خاصة فى روحها .. ولن تنسى أبدًا اللحظة التى أغمض فيها عينيه بين يديها..

عندما مات وفى نفسه شىء من (حتى) ...

★ ★ ★

فى القصة القادمة تقابل (عبير) من يدعى (تشى) .. كلا أنا لا أعطس صدقنى .. إن هذا هو اسمه .. سوف تعرف أن لفظة (تشى) كناية عن أى مواطن أرجنتينى ، مثلما يكنى أى طفل بـ (حمادة) وأى بورسعيدى بـ (أبو العربى) وأى ألمانى بـ (فريتز) ، لكنها فى حالتنا هذه شديدة الخصوصية .. إن (تشى) الذى سنقابله هو رمز المقاومة والثورة فى القرن العشرين ، وربما يبقى كذلك للأبد.

تمت بحمد الله تعالى

فانتازيا

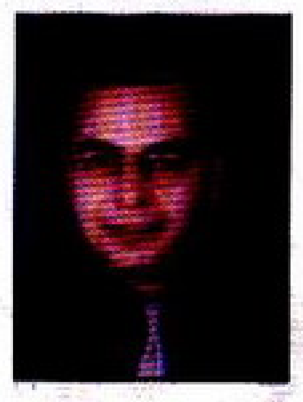
مغامرات ممتعة
من أرض الخيال

روايات
مصرية
للجيب

٢٠٠٥/١٢/٢٧

44

شىء من جنّى



د. أحمد خالد توفيق

إنها المواجهة العظمى .. لا ليست مواجهة (نابليون) مع (ولنجتون) فى معركة (ووترلو) .. ليست مواجهة (هانيبال) مع (سكيبيو) الأفريقى .. ليست مواجهة (هتلر) مع جيوش الحلفاء ..

إنها أكبر من ذلك وأشد خطراً .. إنها مواجهة (سيبويه) مع (الكسائى) .. إن كنت لا تعرف الثانى فلتقرأ هذا الكتيب .. أما إن كنت لا تعرف الأول فرأيى هو ... إحم ...!

الرواية القادمة

تشى !

الثمن فى مصر ٣٠٠ ص
وما يعادله بالدولار الأمريكى فى سائر الدول العربية والعالم

المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية

